عشق وخيانة

مجموعة قصصية

منى ياسين

دار غراب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الأرواح الهائمة في فضاء الله، بحثا عن قطعة البازل المفقودة؛ لعلها تلائم نفوسهم المشروخة.

منى ياسين

مقدمة

فكرة النصف الآخر تراودني عن نفسها.

أتساءل: هل لكلّ منا رفيقٌ نفس، ونصفٌ جميل انفصل عنه، بعد أن حُكم علينا المجيء إلى هَذا العالم؟ وماذا لو كان نصفي هذا في عالم آخر؟ هل هذا يعني أنّنا لن نلتقي أبد الدهر، وستظل روحي هائمة في الفضاء، باحثة في الأثير عن من لا يوجد فيه، أم أنه حتما يوجد في هذا العالم الشاسع الممتد عبر البراح، لكننا نحتاج لمعجزة كونية لتجمعنا معًا؟ إذا صحت هذه الخرافة، فهذا يعني أن السواد الأعظم، لم يحصل على وليفه بعد؛ فالعلاقات المبتورة خير دليل على هذا، وليس من المنطقي أيضًا، أن يوجد ما يسمى بـ حب من طرف واحد؛ لأن لوحة النفس الناقصة، تحتاج لقطعة بازل محددة لتُكمّلها، ولا يجوز لقطعة البازل تلك أن تحشر نفسها في أية لوحة تعجبها، لمجرد انبهارها بها، أو رغبتها في الاستكانة والاستقرار.

إذن فلنُعِد صياغة السؤال: هل يجب على الحب أن يكون متبادلا بين الطرفين، وإلا فلن يكون حبّا؟

وهل النصف الآخر حقيقة، أم أنه مجرد وهم ؟

ردة الفعل

"زوجتي تخونني" هكذا قالها في انهيار صادم يشي بحجم فجيعته.

فقلت وقد أثارت جملته ذهولي: "استحالة! زوجتك، تلك المرأة الفاضلة ذات الأخلاق العالية، لا يمكن أن أصدق هذا".

- ولكن هذا ما حدث بالفعل.

- كيف ذلك؟ هل تأكدت؟ قد يكون هناك لبس في الأمر.

- هذا ما تمنيته ولكنه غير حقيقي، زوجتي تخونني.

"بدأ الأمر حينما..." وبدأ يسترسل في الحديث بعيون ذاهلة وكأنه مُغيب عن العالم الخارجي:

- منذ ارتبطنا، وزوجتي تريد أن نحيا حياة غير تقليدية، لم أفهم مقصدها إلا عندما تمنعت يوم الزفاف، ولم تكن تريد أن يكون أول لقاء جسدي بيننا لمجرد أن هذه هي العادة في هذا اليوم، فتحججت بأنها مُرهقة من ترتيبات الزفاف، وبأنه يبدو عليَّ الإرهاق أيضًا، وبأنها ترغب في النوم العميق بلا أية مسئولية، لننعم بالصفاء الذهني، ونتمرد على عادات فرضت علينا، ونكون أحرارًا فيما نختاره لحياتنا.

صُدمت بطريقة تفكيرها، وأخبرتها بأنني كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، فقالت إنها تريد أن تشعر برغبتها هي الأخرى في فعل ذلك، تريد أن نستمتع من أجل المتعة، وليس من أجل أداء روتين.

خضعتُ لرغبتها، وتركتها تغفو بجواري، دون أن ألمسها سوى بقبلة على رأسها مُتمنيًا لها أحلامًا سعيدة.

في اليوم التالي استيقظت نشيطة مُبتهجة، وأيقظتني لنفطر سويًا. كانت تبدو فرحة حقًا بوجودنا معًا. شعرت وقتها بأن هذه هي لحظتي، وسيكون هذا هو يومنا الموعود، وخمّنت بأن الأمر كان مقتصرًا على الإرهاق والرغبة في النوم والحصول على قسط من الراحة، اقتربت منها ومسدت شعرها، ثم انزلقت

يدي إلي ذراعها أتحسسه بروح ولهي، كان له ملمس القطن ولونه، ابتعدت عني، ووضعت قطعة من الجبن الرومي في فمي قائلة: لا يزال الوقت مُبكرًا يا حبيبي، واليوم أمامنا طويلًا، فلنقضه خارجًا ونستمتع في أسبوع الإجازة بالتنزه، أقنعني منطقها واعتبرت هذا شكلًا من أشكال الـ...

قاطعته قائلًا: الدلال؟

فأجابني: لا، هو شكل من أشكال التقارب الروحي والنفسي، ففترة الخطوبة كانت قصيرة كما تعلم، وزواجنا كان تقليديًا، فقلت لعلها تريد الاقتراب من روحي على مهل، وتعطيني الفرصة أيضا لذلك.

ولم يكذب حدسي، فبعد عودتنا ليلًا صارحتني بهذا، حتى إنها ذكرتني بشادية في فيلم الزوجة 13.

كانت زوجتي تريد أن تمتد فترة الخطوبة التي لم تشعر بها ولم تستطع أن تعيشها كما أرادت، لأنها كانت مزدحمة بتجهيزات الشقة وشراء الحاجيات اللازمة، وبترتيبات الزفاف. كدت أثور عليها، ولكنني ألجمت نفسي، فهي ما تزال عروسًا، والأجدر ألا ترى مني إلا كل تهذيب في التعامل معها، علها تلين. أخبرتُها بأن الزواج شرعُ الله، وبأنها بهذا تهدر حق الزوج. فكان ردها: إذا كنت تريد جسدي فقد أصبح ملكك بالفعل، وتستطيع أن تفعل به ما تريد، ولكن إذا أردت جسدي، وروحي، وحياة مختلفة بعيدة عن الرتابة المنتظرة، فأطعني وأعدك بأنك لن تندم.

بإمكانك أن تعتبره تحديًا، أن نعيش معًا دون أن تنتهك عذريتي، لنجرب حياة الحرية البعيدة عن الروتين العقيم، ومعرفة الأحداث مُسبقًا قبل حدوثها، ما الممتع في فضّ غشاء بكارتي، ثم ممارسة الحب مرات عديدة في اليوم الواحد لأيام متتالية، ثم كما جاء مد الشهوة ينحدر بجذر التعوّد، فيتحول الشغف إلى واجب، واللهفة إلى فتور، ثم تساؤل المحيطين عن كوني قد حافظت على بعض بذورك بداخلي لأنتج بها نبتة تصلح للحياة.

ثم أصدرت صوتًا من فمها تعبيرا عن اشمئزازها "يع..." هذا محض هراء. لا أريد أن يعلم أحد عن علاقتنا شيئًا، أو أن

يرصدها ويترقب ما سيحدث بيننا، ولا أريد أن تكون حياتنا نسخة كربونية من حيوات الجميع. سنكون شركاء في السكن يجمعنا الحلال، وإذا ما نبتت الشهوة داخلنا لن نمنعها. فقط نجعلها تأتي على مهل دون إثارتها، وكأنها المرسى الأخير لرحلة الروح.

أريد أن تكون حياتنا كالمثلث أضلاعه الثلاثة هي: الإخلاص الأخوي، والعشق الملتهب، والثقة الزوجية.

أمسكت ذراعها عنوة وألصقت ظهرها بالحائط مُقتربًا منها وقلت: وإذا رفضت عرضك هذا وأردتك الآن؟

- لن أمنعك، افعل ما تريد، فقد أخبرتك بأن هذا الجسد ملكك.

- أنا أحبك.

- حدقت في عيني قائلة بلا مبالاة: سيظهر هذا بالفعل مع الوقت.

شعرت بفتور رغبتها حقًا، ولا أريد أن يكون ما بيننا تحت مسمى الاغتصاب، أن تسلمني جسدها مُرغمة، فأضاجع جثة لا صوت فيها ولا حركة، أردت أن تبادلني الحب، لا أن تجبر على أدائه إذا ما فعلت.

أنزلت ذراعي عن الحائط، تلك التي كانت تحيط بها، وتعوق حركتها، وابتعدت مُقتنعًا بما قالت، ساخطًا على حظي العاثر الذي أوقع بي مع زوجة مختلفة كهذه.

اقتربت زوجتي مني، وأخذت تمسد شعري، بعد أن جلست على الفراش؛ لأخلع حذائي، وأخبرتني بأنها ستحضر أجمل عشاء نتناوله سويًا على ضوء الشموع، وصوت موسيقى ألف ليلة وليلة.

ابتسمت في وجهها وقلت: احكي يا شهرزاد.

تركتني أبدل ملابسي، وذهبت لتحضير الطعام، وكان ما أشهاه، رغم أن المحتوى كان طعامًا سريعًا -تيك أواي- (تشيكن برجر، بطاطس محمرة، كاتشب وشرائح من الخيار والطماطم، مع عصير المانجو) لكن الجو العام يشير بأنك تأكل أطيب الطعام، الموسيقى أعادتنا لأيام طفولتنا، وصوت سميرة

سعيد كتتر لمسلسل ألف ليلة وليلة الشهير، وصرنا نتذكر مواقف وطرائف، ونضحك بالفعل من كل شيء.

من الواضح أن فكرة تقاربنا الروحي أولا كانت فكرة صائبة، فقد كانت تثير كل يوم حالة جديدة بموضوع جديد نعيش فيه، حتى أنني طهوت الطعام يومًا دون أن أشعر بأن هذا الفعل يقلّل من كرامتي كما ربّتني أمي، بل على العكس كان من أجمل الأيام، فمن الواضح أنها أيضًا كانت تجرب الطهي مثلي فصرنا نتكئ على بعضنا، ونحن لا نعلم شيئا سوى من برامج الشيف شربيني، لهونا كصبيين مراهقين، وأحرقنا الطعام كأحمقين ألهتهم مشاهدة برنامج الطهي عن الاهتمام بالطعام الذي يُطهى بالفعل. فينتهي بنا المطاف لساندويشات الجبن مع الخيار، والتحلية بشاي في الخمسينة.

اكتشف كل منا الآخر، وتآلفت أرواحنا، وصارت حياتنا أجمل مما تخيلتها، وحين قاربنا على الشهر رأيت الرغبة في عينيها فامتثلت لها ولبيت النداء، فقد صرت أفهم نظراتها وما تعنيه، وقد كانت أجمل ليلة في عمري حقًا.

فقد كان الحب متبادلًا، والشوق مشتعلًا، ولم تشعر برهبة الفتيات التي حدثني عنها أصدقائي المتزوجين، ولم تبكي وتصرخ كما كانت تتوقع أمي أن تفعل، بل كانت كغصن البان الذي ينتظر طيره المفضل، ليسكن فوقه ويغرد. فتنتشي هي، وأبتهج أنا.

صرنا عاشقين، آتي من عملي مهرولًا للقائها، وتأتي من عملها مبتهجة بعودتي، حتى جاء يوم واقترحت فكرة مجنونة منعا لتسرب الملل بيننا دون أن نشعر.

جلبت خطي هاتف جديدين، أحدهما لها والآخر لي، وقالت: إذا شعر أحدنا يوما بالضجر والرغبة في التجديد فليتصل برقم الآخر ليجد شخصية جديدة، واللقاء سيكون في غرفة النوم المهجورة التي أعددناها للضيوف سابقًا.

كانت تتحدث بجدية، وكنت أنا مُنبهرًا فقلت لها: لا تقلقي، إن كان هذا اختبارًا لمدى تسرب الملل إلينا، فهذا غير حقيقي، لا أحد يمل من روحه.

فقالت: بالعكس، جُبل الإنسان على حب التجديد وإلا أصابه العطب. فالإنسان كالبحر يجب أن يوجد موج في حياته ليشعر بأن الحياة ما زالت في داخله، بعكس النيل الهادئ الرزين الذي لا يجدد ماءه. ألا ترى معي بأن الموج يخلص البحر من شوائبه مهما كان فيه من أوساخ بشرية؟ لتكن حياتنا كالبحر وليس كالنيل.

- تريدينه بحرًا هائجًا إذن!

- لا، بل أريده بحرًا فقط، هادئًا كان أو هائجًا لا فرق، المهم أن يكون الموجُ موجودًا؛ ليطهره مما علق به من ملل الرتابة.

- حبيبتي، واضح أنك تعانين من فوبيا الرتابة.

- لا تسخر مني، وضع الخطَ في هاتفك كما سأفعل الآن.

وضعنا الخطوط بالفعل ولم نستخدمها.

إلى أن جاء ذلك اليوم بعد زواجنا بسبعة أشهر، كنا نجلس على الأريكة نشاهد فيلم السهرة، وكانت ترتدي روبًا أبيضًا من الساتان له ياقة ضخمة مطرزة، وكان شعرها مشدودًا بلا اكتراث إلى الخلف، بدون مستحضرات تجميل.

كانت منسجمةً تمامًا مع ما تشاهد، لا تريد أن أقطع صمتها بثرثرتي المعتادة إذا لم يعجبني شيء نتابعه في التلفاز.

وهنا أخذت ألعب في هاتفي بلا اكتراث، أشاهد أسماء سجل الهاتف فوجدت بينها اسم (مزاجي) وكدتُ أعصر ذاكرتي لأتذكر صاحب الرقم، فأرسلت رسالة عبر "الواتس آب" وجاءني الرد: "تحت أمرك يا باشا. قابلني بعد نص ساعة" انتبهت من قراءة الرد لزوجتي وهي تضع هاتفها جوارها فتذكرت اللعبة، ولأنها لم تبد أي انفعال ولم تتحرك، لم تعدل من جلستها، حتى إن جسدها ظلّ مثنيًا على الأريكة.

تقمصت دور الزوج الذي يريدُ العبث بالخارج دون أن تعلم زوجته وقلت لها: أنا خارج.

قالت بانتباه: على فين يا حبيبي؟

تلعثمت بالفعل وقلت: خارج شوية، أنا داخل ألبس.

وهنا قامت من مكانها قائلة: وأنا داخلة الحمام، ما تتأخرش، هستناك على العشاء.

دلفت غرفة النوم لأبدل ملابسي، وانتابتني حيرة حقًا ماذا أرتدي؟ ثم قررت ارتداء القميص الكحلي، والبنطلون الرصاصي، ولمعت الحذاء الأسود، ووضعت عطرًا نافذًا، وخرجت من غرفتي، ثم قلت وأنا أطرق باب الحمام: أنا خارج يا حبيبتي.

وذهبت إلى الغرفة الأخرى في آخر الشقة لأطرق على الباب بتوجس. هنا فتحت أنثى صاخبة، ترتدي ثوبًا قصيرًا، مُلتصقًا بالجسد، له كورنيش عند الركبة، لونه برتقالي، وكان شعرها مموجًا مسترسلًا على كتفيها تربطه من أمام "بتربونة" برتقالية ينسدل منها قصة شعر، كانت تشبهُ خادمات السينما المصرية في الستينيات، ولكنها كانت مُثيرة، لم تكن سوى زوجتي، تلك التي تعاملت وكأنها لا تعرفني وتنتظر لتعرف سبب قدومي.

كنت متلعثمًا حقًا، وأنا أحاول الدخول في هذه الحالة المثيرة. كدت أحقد عليها، فقد ارتدت ثوب بائعة الهوى في دقائق قليلة، هي نفس الدقائق التي كنت أرتدي فيها ملابسي.

أخبرتها: "أنا اللي كلمتك من شوية ع الواتس آب".

فباغتتني بضحكة رقيعة قائلة: "هو أنت! ومستعجل ليه؟ أنا قلت تعالي بعد نص ساعة ما فاتش غير ربع ساعة بس. أنت كنت باعتلي وأنت تحت العمارة ولا إيه!"

وإزاء ارتباكي وأنا أراها متقمصة الدور كأفضل ما يكون، أخبرتها بأنني جئت لتجربة ما هو جديد وصاخب، فهل سأجده عندها؟

ضحكت بخلاعة، واقتربت مني تتحسس جسدي، وتعبث بأصابعها الطويلة عما تطوله يداها الناعمة، تعاملت كخير ما يكون كمحترفة تعلم جيدًا تشغيل زر الإثارة بجسدي.

جذبت شعرها للخلف ثم خلعت عنها ما ترتديه بفجور، فقابلتني بفجور مماثل ونزعت عني ما أرتدي، وحدث الالتحام.

كانت هي صاحبة المبادرة دومًا، كانت كالفارس الذي يمتطي جوادا يخشى الانزلاق في الوحل فتشجعه على الحركة بوكز جانبيه بأقدامها. كانت صاخبة، مندفعة، هائجة.

جربت معها مالم أجربه من قبل. جسدها كان مُباحًا لي، دون أن أخشى عليه من رعونتي، كما أفعل في الفراش مع زوجتي. هنا كنت أخمش جسدها بأظافري وأعصره بين يدي، وهي تستخدم أسلحتها بالمثل: تغرس أظافرها في ظهري، وتعض حلمة أذني. كأننا كنا في حلبة مصارعة، ومر الوقت سريعًا، ثم انتبهت على صوت دقات الساعة تشير للثالثة بعد منتصف الليل، فانتبهت بأن عليّ أن أنام باكرًا حتى لا أتأخر عن عملي صباحًا، أخبرتها بأنها رائعة، وتركتها وانصرفت على وعد بلقاء جديد.

خرجت إلى الحمام مباشرة لأستحم وأستعد للخلود إلى النوم سريعًا، وحينما خرجت مشعث الشعر مُرتديًا روب الحمام الأبيض، دخلت غرفتي لأرتدي المنامة وأهذب شعري، فوجدت زوجتي تغفو مديرة ظهرها لي، ترتدي قميصًا من الساتان الأبيض، ذلك الذي كانت ترتديه تحت الروب قبل ذهابي، أطفأت الضوء لكي لا تستيقظ، وغفوت بجوارها بهدوء، لأفاجأ بها تشعر بقدومي قائلة: "كنت فين؟ واتأخرت ليه ده كله؟"

أدهشتني بأسئلتها، وشعرت بأنني كنت أخونها فعلاً، وهي تتحدث بجدية زوجة قلقة على زوجها بالفعل. فتحججت بأنني لم أشعر بالوقت، واعتذرت منها واعدًا إياها بعدم حدوث ذلك مرة أخرى. فأخبرتني متأثرة: لقد انتظرتك كثيرا على العشاء.

هنا انتبهت إلى أننا لم نتعشَ معاً لأول مرة منذ زواجنا. باتت غاضبة لتأخري عنها، وكان لزامًا علي ترضيتها رغم إنهاكي من الجولة الأولى.

الفرق أنني حين أكون معها، أكون أنا القائد المتحكم في كل شيء، هي فقط ردة الفعل، أخاف عليها، ألمسها برقة، أحضنها في النهاية كطفلة صغيرة أنجبها قلبي، أهوى رعايتها والاعتناء بها، لا أنعس قبل الاطمئنان الكامل عليها، والتأكد هل استمتعت حقًا من خلال تعبيراتها وملامحها التي صارت بالنسبة لي مكشوفة.

صارت الأخرى في الذاكرة أذهب إليها كل أسبوع مرة، وأكون معها مختلفًا تمامًا، فقد أتقنت اللعبة، أترك لها عجلة

القيادة في أوقات كثيرة، وأستمتع بها لأقصى حد، لا يهمني ما تشعر به، فإذا وصلت لذروة نشوتها مثلًا أظل أثيرها حتى أنهكها تمامًا، فتصبح كسمكة البلطي التي أخرجت من الماء توا.

لم نكن نتحدث، كنا نفعل فقط، كلامُنا كان على الهاتف أكثر إذا ما شعرت بالملل في منتصف النهار وأردت الإثارة قبل الذهاب للمنزل، وهكذا أصبحت حياتنا.

حتى جاء اليوم الذي وجدت خط هاتفي المُهمل يرن برقم زوجتي، تخبرني بأنها تريد تمضية وقت بعيدًا عنْ منزلها، وافقت وسط الدهشة وأعطيتها موعدًا في الساعة التاسعة مساء نفس اليوم، وقبل الموعد بنصف ساعة وجدت زوجتي ترتدي فستانًا كحليًا طويلًا وضيقًا وتستعد للخروج.

سألتها: "على فين العزم كده من غيري؟"

- "رايحة لواحدة صاحبتي. محتاجة أتكلم مع حد"

انتبهت واقفًا متصنعا التأثر: "وأنا رحت فين؟ ما تكلميني أنا"

فقالت بابتسامة: "ما ينفعش يا حبيبي"

- "ليه إن شاء الله؟"

- "عشان ما ينفعش اتكلم معاك عنك"

- "انتي ناوية تجيبي في سيرتي بقى"

- "بصراحة آه، أمال هجيب في سيرة مين يعني؟ يلا سلام"

- "ما تتأخريش يا قلبي"

- حاضر يا عيوني"

وضعت قبلة على وجنتي وانصرفت. لقد خرجت من باب الشقة بالفعل! ترى إلى أين ستذهب؟ هنا انتبهت إلى أنني يجب أن أكون في استقبالها في الغرفة الموعودة، ارتديت قميصًا "نبيتي" اللون مع بنطال أسود، واخترت عطرًا مُختلفًا لم أستخدمه من قبل وانتظرتها.

عند الساعة التاسعة وجدتها تطرق الباب، وقد جلبت معها علبة شوكولاتة صغيرة، ودخلت دون أن تفتح فمها أو تنتظر مني دعوة للدخول، كانت زوجتي في حالة اكتئاب على ما

يبدو، ولكن عليّ تقمّص حالةِ الرجُل العربيد، أو على الأقل أية شخصية أخرى غير شخصيةَ ذلك الزوج المُحبّ.
جلستْ على المنضدة الصغيرةِ التي تتوسطُ الغرفة وقالت: هذه الشيكولاتة ليست لك.
فأجبتها مُبتسمًا: "يعني جايباها تشوقيني بيها!"
فقالت وما زال الحزن يكسو وجنتيها: "إنها لي، أريدك أن تقدمها لي قبل أن أغادر!"
فقلت بريبة: ولم؟
- لأن اليوم هو عيد ميلادي، ولم أجد أحدًا يتذكره، وأريد أن يقدم لي أحد هذا النوع من الشوكولاتة، هل لديك مانع؟
عضضتُ شفتي السفلى، فهذا أول عيد ميلاد لها وهي زوجتي، كيف لي أن أنساه، وأنشغل عنها بأخرى وهمية. قلت: سنحتفل به الآن، وأدرتُ موسيقى هادئة، وأطفأت الأضواء مُكتفيًا بإضاءة خافتة: "تسمحيلي بالرقصة دي؟"
مدت يدها لتنزلق بين يدي، ورقصت معي، لم تتحدث عن شيء، أنا أيضا لم أقل شيئًا، بل كنت أضمّها بحنان بينما كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنها غريبة عني.
في نهاية الرقصة حاولتُ أن أقبّلها فامتنعت وأبعدتني قائلة: "أنا ست متجوزة، وجاية بس عشان نتكلم، ومش هسمح لك تقرب مني، وإلا مش هتشوف وشي تاني"
- "وعلى إيه يا ستي! بلاش، لكن طالما متجوزة جاية هنا ليه؟"
أجابت بصوت مختنق: لأن زوجي يخونني، أشعر بهذا.
فاجأني ما تقول، وأجبت: الشعور وحده ليس كافيا، هل لديك دليل على خيانته؟
-أنتم معشر الرجال تحتاجون أدلة مادية، أما نحن فنمتلك الحدس الأنثوي الذي لا يخطئ.
حاولت تهدئتها بالحديث وأخذتُ أنفي التهمة عنه، حتى ابتسمت في النهاية وأنا أقدم لها الشوكولاتة قائلًا: "كل سنة وانتي جميلة"

انصرفت وتركتني مشتت الروح، زوجتي حزينة من تلك اللعبة التي اخترعتها وتخبرني هذا بذكائها المعهود. إذن فلأمتنع عن ملاقاة الأخرى، فهي الأصل.

وخرجت لأبتاع لها هدية تليق بروعتها، ثم ذهبت إلى غرفتنا فوجدتها تهم بالنوم فضمَمْتها قائلًا: "مش هنتعشى ولا إيه؟"

ردت بأنها لا تريد.

فتوسّلت إليها أن تحضّر لنا شيئًا فأنا أتضوّر جوعًا، وإزاء إلحاحي قامت لتدخل المطبخ، فتجد تورتة بالشوكولاتة عليها اسمها وجملة "كل عام وأنتِ زوجتي".

ابتهجت، وتعلقت برقبتي، وقضينا ليلة رائعة مليئة بالحب والمتعة، وكأن المياه قد عادت لمجاريها.

وبعد شهر، اشتقت إلى الفتاة الأخرى وقضيت ليلتي معها، فقد كانت دومًا مختلفة فيما ترتدي، وفيما تفعل، وكأنها فتاة ليل محترفة.

وفي اليوم التالي اتصلت زوجتي بخطّي، الذي لا يعرفه سواها تحدد موعدًا للقائي، تذكرت عهدي مع نفسي، بألا أستدعي المرأة الأخرى مُجددًا، وندمت. وتم تحديد الموعد، والتقينا.

كنت حريصًا عليها من نفسها الغاضبة وهي تخبرني:

- كما خانتني سأخونه.

- هل جننت؟ هو رجل!

- وهل حق الخيانة مكفول لكم معشر الرجال؟

- لا أقصد هذا، ولكن المرأة دوما هي رمزٌ للشرف.

- هذا إقرارٌ آخر، بأن الرجال عديمو الشرف!

- يا سيدتي لم أعن ذلك، إنما لا يليق بك أن تفعلي هذا!

- لماذا تدافع عن فكرة الخيانة هكذا؟ ألأنك رجل أم أنك تخشى الصدام؟

- الصدام مع من؟ هو أمر مرفوض على كل حال، وأعتقد أن زوجك مظلوم.

غلبتها دموعها وانهارت باكية: لا، ليس مظلومًا، أنا متأكدة، وعامة أنا همشي من هنا، ومن حياته، ومن كل مكان ممكن ألاقي حد يعرفني فيه".

فوجئت بردة فعلها، وبانهيارها، ولحقت بها أخبرها: "هتمشي تروحي فين؟ أنا بحبك وما خُنتكيش"

ضممتها إليّ فاستجابت، لكنها صدتني بحديثها: "لكنك لست زوجي، هو يغفو في غرفتي بانتظاري الآن"

عدت لممارسة اللعبة مجددًا: نعم لست هو، ولكن ليتني مكانه.

انسحبت من بين يدي وأدارت مشغل الصوت على موسيقى هادئة ففهمت ما ترنو إليه، وراقصتها.

كانت تقترب مني حد الالتصاق وكأنها تدعوني لمضاجعتها، استطاعت إثارتي، فقبلتُ عنقها بحذر وأنا أخشى ردة فعلها، لعلها تثور وتنتبه فتنصرف، لم تفعل ذلك، فقد ذابت في صدري، وجسدها ما زال يقوم بدوره من الاحتكاك المطلوب، كدت ألتهمها بقبلاتي التي نثرتها على وجنتيها وعنقها، ثم ذبنا في قبلةٍ حارةٍ طويلةٍ تنذر بعاصفة مدوية ستحدث بعد قليل.

وبالفعل لم أنتبه لما حدث إلا وأنا جاثم فوق جسدها العاري أنظر في عينيها، وهي تشيح بوجهها عني، وكأن نظراتي هي من نزعت رداءها.

هنا فقط شعرت بأن زوجتي تخونني، هي ليست معي أنا زوجها، ولكنها مع أنا الآخر، الصورة التي صنعناها سويًا وجسدناها، لقد أذاقتني من ذات الكأس بحنكة تحسد عليها، لقد سلمت جسدها لي فقط، ولم تسلمني شيئا آخر، لقد خانتني زوجتي معي.

أول لقاء

جمعتنا الكتابة القصصية على الإنترنت عدة أعوام، وحان اليوم الذي نرى فيه نتاجنا الأدبي في حفل جماعي مشترك، ونلتقي فيه على أرض الواقع لأول مرة. لا أنكر أن فرحتي بوجودك فاقت – بمراحل- فرحتي بنجاح القلم. كنت أعرف ملامحك من صورتك الشخصية على البروفيل، وبالمقابل لم تكن تعرف ملامحي.

يومها حضرت قبلك لاستقبالك، ونويت أن أخفي شخصيتي الحقيقية عنك، وأتعامل معك كإحدى منظمات اللقاء -على سبيل المزاح-، ولكني لم أستطع كتمان ابتسامتي العريضة، ونظرات عيني الفرحتين، فما كان منك حينما رأيتني أتقدم نحوك مبتسمة هكذا، إلا أن نطقت اسمي مُستفسرًا عن هويتي، فما كان مني إلا أن أجبتك: بنعم.

وبعد التحية السريعة تعاملنا وكأننا ألتقينا مرارًا، فلم نستغرق وقتًا للاندهاش المصاحب للرؤية أول مرة، وقتها هممت بجذبك من يدك، لأريك منظرًا خلابًا يطل على النيل، ولكني تذكرت أنه لا يصح لي أن أمسكها، فعرضت عليك بعفوية طفلة أن: تعالَ سأريك منظرًا رائعًا.

وفي طريقي ألقيت ببصري تجاه أمي لأخبرها بنظراتي إنه "هو"، فابتسمت وهي تنظر إلينا وتفهم ما أعنيه.

مشيت ورائي مُسرعًا لتلحق بي، فقد كنت أشعر بأنني أطير من على الأرض فور رؤيتك. وقفنا أمام المشهد الساحر المُطل على النيل مباشرة، حيث تبدو وكأنك واقف على الماء بالمعنى الحرفي للكلمة ولكن دون أن تبتل؛ فالمكان مرتفع.

رأيتني آخذ نفسًا عميقًا وانظر نحوك وابتسم، فأجبتني بابتسامة هادئة، مُهديًا لي الشوكولاتة من النوع المفضل لي.

لم أدر كيف أعبر عن سعادتي! فأنت، والنيل، والشوكولاتة المفضلة لي التي جلبتها من أجلي، فزادت

ابتسامتي، وكدت أقفز من شدة فرحي، وأتعلق بعنقك لأخبرك: كم أعشقك.

ولكن، حالت التقاليد دون ذلك. فبدأت بفض غلافها، فبادرتني بقولك لي:"لماذا تفتحينها الآن؟ تناوليها في البيت".

فأجبتك قائلة:"ما أكثر ما تناولت الشوكولاتة في البيت بمفردي، أما هذه فسنتناولها معًا ليصبح بيننا شوكولاتة ومنظرًا خلابًا -على غرار العيش والملح-".

فأعطيتك قطعة صغيرة، إلا أنني أخبرتك أنها قابلة للزيادة، فلدي الاستعداد أن أشاركك فيها مُناصفة. بينما تمنيت في نفسي، لو أن شفتانا تنازعتا على تناولها.

ولكن، كالعادة لم يحدث.

كاد الحفل أن يبدأ. و بدأ الناس في الحضور فدخلنا القاعة وكل منا نفسه مُلتهبة مُلتاعة.

(تتذكر هذا وتبتسم وهي تراه الآن مع ابنتهما يتنازعا على الشوكولاتة قائلة وهي تضحك: هذه الشوكولاتة تخصني).

ساكن أحلامي

استيقظت على صوت هاتفها النقال ينبئها باستقبال رسالة، نصها "صباح الخير يا مُهرتي الحلوة"

تبتسم، تضع الهاتف بجانبها على الوسادة، ترجع لحلمها من جديد، تحاول استعادة تفاصيله؛ علها تستطيع إكماله، لكن دون جدوى فقد استيقظت بالفعل. تستسلم، تفتح عينيها مُبتهجة لرؤيته، تلقي تحية الصباح كأنه أمامها، تحكي عن إحساسها به الذى لم يتوقف لحظة منذ الفراق.

أتعجب من رؤيتي لك في المنام أمس، أنت تعلم قطعًا أنك بخيل في زيارتك لي في أحلامي، لهذا لم أتوقع أن أقضي ليلتي معه ثم ألقاك أنت. أظنك لا تدري أن سر إعجابي به لأنه يشبهك، بالأدق يكمل علاقتي بك. تمنيت أن أعرفك به ليحدث بينكما مناظرة ما، ترى إذا حدث تحدي بينكما سواء فى الحوار، أو الكتابة، أو حتى في لعبة الشطرنج من يربح وقتها؟ أثق بكما كثيرًا لكن ثقتي بك أكبر.

أنت ستهزمه بالتأكيد.

هل تعلم أن مكانك عندي لم ينافسه أحد، ولن يأخذه أحد، فأنت في أعماق القلب ساكن.

يأتي من يأتي، ويذهب من يذهب، وتظل وحدك محتفظًا برونق المكان. لا ينافسك فيه أحد ولا يجرؤ على الاقتراب منه أحد، وكأن قلبي قد بنى غُرفة سرية، ووضعك فيها، وترك فراغ المكان المتبقي لمن يريد النزول.

هل تعلم بأنني لم أعجب بقلمك يومًا. لم يثيرني لقراءته رغم تمكنه، وحرفيتك في استخدامه.

كنت أقرأه فقط لأنه يخصك.

قلمك لم يكن للجميع، هو لمتذوقي اللغة ومحترفيها.

فهو حاد حتى في رومانسيته. إحساسي به كإحساسي بما كنت أدرسه في المدرسة والجامعة.

جاف، خالي من الروح. هو لم يروقني على أية حال.

تمنيت أن أقرأ لك عامية، علـه يمسني ويصل إلـيَ، ولكن كيف لأستاذ اللغة الأول، أن يكتب سوى بالفصحى المعقدة، الخالية من الجاذبية.

هل تعلم لِمِ كنت أطلب منك أن تقرأ عليَّ ما تكتب؟ لأن في قراءتي المنفرِدة، لم أكن أفهم معنى الكلمات.

فقراءتي كانت تختلف عما تريد قوله.

أما نطقك للكلمات كان يوضح الصورة، فتشكيل الكلمات وحده لم يكن يكفيني.

أعتقد أن ماتكتبه قد يُدرس يومًا ما، إذا ما استمرت الخطة التعليمية بهذا الشكل العقيم.

أما هو فقلمه رائع بحق. ما أعجبت به، ولا لفت نظري إليه، إلا لجمال كلماته، وصور تعابيره الرشيقة و بلاغتها.

عاشقة أنا لما يكتب، ويخطه قلمه. لا أفضل عاميته، فهو بها كرجل سوقي فاقد للبريق.

أفضله بالفصحى، فهي تجعله كالغواص يستخرج لآلىء اللغة، ومرادفاتها جديدة الاستخدام،قلمه مُثير، ومُمتع، وقوي...

هو رآني كأنثى، حادثني، وشعر بالإعجاب بي وصارحني بذلك.

عكسك تمامًا

أنت لم ترني أنثى قط. كنت تعاملني كصديقة، أو شقيقة. تحكي عن مغامراتك النسائية، وتعرفني على كل فتاة جديدة قائلا "أختي".

لكنك لم تكن لي أخًا قط؛ فأنا لا أغير على أخوتي هكذا، ولا أشعر بسخونة جسدي، ونار في وجهي، إذا ما رأيت مع أحدهم فتاة يقولون بأن بينهما قصةً حب.

نعم، كنت أسمع لك في اشتياق، وكنت أتمني أن تُمحى جميع نساء الأرض علك تراني.

أعتقد أنك لم تكن بهذا الغباء حتى لا تشعر بإحساسي بك. كنت تشعر، أتأكد من هذا، ولكنك أخذت قرار بعدم الاقتراب مني، أو التحرش بمشاعري.

كنت تعلم بأن مُسمى الصداقة، والأخوة أعمق وأبقى؛ ولهذا لم أتهمك يومًا بظلمي، أو إهانتي، أو حتى المساس بي.

لم أكن أخشى على نفسي منك. كنت أعلم بأنك لن تخترق حصوني، حتى وإن كنت تعلم بأن المفتاح معك، وتستطيع الولوج بسهولة ويسر.

وأنا لم أشتهيك يومًا كرجل، لم أتمناك زوجاً - كيف أراك رجلاً وأنا لم أشعر معك يومًا بأنوثتي- ولكنني وددت أن أظل معك. أن أطمئن عليك، أن أعرف أخبارك، أن أستمع لمغامراتك، أن يكون لي الحق لمشاركتك كافة تفاصيلك، أن تشاركني رغبتي في التنزه سيرًا على الأقدام بين ربوع الوديان،

وأن نقضي معًا رحلة ترفيهية لبلد بعيد. نعود منه مُحملين بذكريات لا تنسى، تمنيت أن يكون لي الحق في مواساتك إذا ما أصابك مكروه مُربتة على كتفيك كرضيع أريد له السكون، وأن أصالحك على حبيبتك ثم أضيق عليكما الخناق بعدها رغم غيرتي وقتها.

أما هو، فحينما عاملني كأنثى، اشتهيته كرجل.

حدثني فيما لم يحدثني أحد فيه من قبل.

لقد نبهني بأن لي جسد شهي.

هو عكسي تمامًا في كل شيء، وكأنه يكملني لنصبح معًا شيء يجمع كل التناقضات.

أما أنت، فقد كنت تشبهني في أغلب الصفات. طباعنا واحدة دون ترتيب مسبق، ودون أن يلفت نظر أحدنا الآخر لذلك.

هل تذكر يوم أن أخبرتنا زميلة بأن ملامحنا متشابهة؟ حينها سعدت بذلك؛ فهذا يعني بأن أرواحنا قد تمازجت، وأضافت لدى الآخرين نظرة مختلفة لوجودنا معًا.

لم يشك أحد يومًا بأن بيننا علاقة مُريبة؛ فعلاقتنا كانت في النور، الكل كان يعلم بأنني إذا سألت عن أخي فسيعلمون بديهيًا أنك قطعًا المقصود.

هل تعلم بأنني ما زلت أبحث عن مواصفاتك في شريك حياتي المستقبلي، وإلى الآن لم أجد.

فأنت بالنسبة لي كامل الأوصاف. لا يوجد فيك شيء مثلًا لا يعجبني أريد تغييره، كل مافيك يروقني.

أما هو، فأنا أعلم أنني لو تزوجته، ستكون زيجة قصيرة لإشباع الغريزة. لن أستطيع إخبار الجميع بزواجي منه؛ فالاختلاف بيننا سيجعل المُقربين مني يتهمونني بالسفه إذا ما حملت اسمه.

أما أنت، مازلت لا أستطيع تخيلك كزوج، ولكن إذا ما حدث. سأكون فخورة بأن أحمل اسمك؛ فستصبح قدوة لأبنائي، أتمنى أن يكونوا مثلها.

ولكن، أو تدري! أنني اختبرت نفسي كثيرًا لأعلم إذا كنت استطعت أن أخرجك من داخلي. فحفل توقيع روايتك الأخيرة، كان في مكتبة قريبة من محل عملي، والموعد تحديدًا في توقيت خروجي من العمل، والأمور مُيسرة تمامًا لحضوري، ولكني لم أشعر بشوق لرؤيتك كسابق عهدي، ورغم تأكيدك لي بأن أحضر، وأن نسختي المُهداة منك ستكون في استقبالي، إلا أن هذا لم يثيرني للحضور.

هو ظهر في حياتي، بعد ما توقعت أنني حقًا نسيتك. فرحت للتشابه بينكما في أشياء.

ومع كل ليلة أقضيها معه، وأكون مستمتعة للغاية.

أراك أنت في منامي.

أنت حب الروح الخالد، أما هو فعشق الجسد الفاني.

سيظل "هو" وإن كان حاضرًا، وستظل "أنت" وإن كنت غائبًا.

أنهت حوارها حين سماعها صوت رسالة هاتفية نصها "اشتقتِك".

غيرة

بعد إعلان خطبتي، صممت أن تترك هند العمل، وآتيتُ بسارة التي أثبتت كفاءتها بالعمل، وأدارته بأكمل وجه، وافقت هند عليها حينها، لكنها الآن تريد العودة إليه، وتتدخل في عمل سارة بشكل مستفز. سارة تحب العمل من أجل العمل، لا تحب أحد أن يتدخل فيما تفعل، حتى أنا. تخبرني عن الجديد وتملي عليَّ اقتراحات ذات أفكار مثمرة.

هند تحب العمل من أجلي، ومن أجلها، فهي تريد أن تظل معي أطول فترة ممكنة، وتريد أن يكون لها شأن أمام الجميع، حتى وإن كانت ما زالت تدرس، ولم تنهي فترة دراستها الجامعية بعد. بدأت تتدخل في شئون العمل، وتطلب من سارة دفاتر، وحسابات، وأشياء عديدة -فعلت معها ما لم أفعله-

تحدثت معها سارة في البداية بود، ثم كشرت عن أنيابها، موضحة بأن العمل له قوانينه، وبأنني رئيسها المباشر، وليس من حق أحد آخر، أن يملي عليها أوامره، أو أن يطلب منها شيئا.

تصل نيران الغيرة في قلبها إلي ذروتها، حتى أصبحت لا تريدها في الشركة، تثور علي رد فعل سارة وأخبرتني بما حدث. انفعلت عليها، وهددتها بألا تتحدث مع سارة هكذا ثانية، وإنها خطيبتي فقط، ليس لها الحق في أن تتدخل في أعمال الشركة، عنفتها كثيرًا حتى بكت، وأذرفت دموعها، وانهارت. أثر موقفي معها على حالتها النفسية، و أصابها شيء ما في ساقها منعها من الحركة، مما جعل والدتها تتصل بي لتعاتبني، وتسألني بانفعال مماثل: ماذا فعلت بابنتها لتصبح في هذه الحالة؟

لم أتوقع أن تهكمي عليها سيصيبها بهذه الحالة ؟! فهي حبيبتي، وابنتي، وصديقتي. كيف لي أن أقسوا عليها هكذا؟! كيف تجلد قلبي في الابتعاد عنها أيامًا دون سؤال؟! كيف استطاع لساني أن يعنفها هكذا؟!

سامحيني يا حبيبتي ...
يقوم من مكتبه متوجهًا للنافذة، ثم يعود مجددًا يفتح جوارير المكتب أمامه، مُحاولًا القضاء على توتره بأي عمل لا يهم، لعله يستطيع مواجهة الموقف الذي سيكون فيه بعد قليل. تدلف سارة إلى مكتبه دون أن يستدعيها، فهيئته ومعاملته منذ قدومه تشير بأنه ليس على ما يرام. هذه ليست طبيعته، تراه وكأنه يبحث عن شيء مُهم، تعرض عليه مساعدتها فهي تعلم أماكن كل شيء في مكتبه، يخبرها أنه يريد إعادة ترتيب الأوراق بنفسه.
رأتني، فعلمت ما بداخلي. هي فطنة ذكية، تفهم كل شيء قبل أن أقول أي شيء، وإن كانت الصورة بالنسبة لها لا تكون واضحة دائمًا كما أريدها، عَلِمتْ بأنني لست على طبيعتي، لكن لا يخطر في بالها بأنها سبب التغيير.

ليست هذه عادة "هشام" فهو يعتمد عليها في كل شيء. تتركه وتنصرف بعد أن يخبرها بأنه يريد التحدث معها بعد أن ينتهي مما يفعل. ظل مُضطربًا، يلملم أفكاره المُبعثرة، ومشاعره المُتناثرة.
كلما أردت أن أعثر لها على أي خطأ لأنهرها بسببه لا أجد، فهي لم تخطئ. مُنظمة، مُتعاونة، خلوقة بطبعها، لا تحتك بأحد، وقتها كله موجه إلى خدمة العمل، ولكن يجب أن تعتذر إلى هند. فهي السبب فيما حدث، كيف لها أن تجرؤ وتتحدث معها بتلك الطريقة.
ليس أشد على المُحب من صراع قلبه مع عقله، فالقلب يخلق المعاذير والعقل يستنكرها، فكيف يكون الحُكم بالعدل إذن على مجريات الأمور بعد أن تدخلت العاطفة، وهي المحُنكة بعرض براهين أقوى، وحجج أثبت لتواجه بها دِفاعات العقل ليهدأ، ما أصعب المواجهة ؟!
سارة أيضًا غاضبة، فكيف لهند أن تتدخل في عملها؟. خاصة إن فرق السن بينهما ليس بالصغير، فهي بالنسبة لها فتاة صغيرة فرحة بخطيبها، كطفلة تفخر بملابس العيد. سارة ناضجة، وتعلم أن هذا حق هند، ولكن ليس على حساب عملها.

استدعيت سارة، فلبت النداء سريعًا كعادتها، طلبت منها أن تجلس لمناقشتها فيما حدث، كانت غاضبة بلاشك، ولكنها تتحكم في لجام انفعالها ببراعة أحسدها عليها، استوعبت كل ما قلته لها من غيرة هند، بل لامتني على انفعالي عليها.

هذا مايميز سارة نُضجها، وترفعها عن الصغائر، مع أنها مُتعبة، فهي لاترضى إلا بالشيء الكامل، طموحها يفاجئني، ويشعرني بأنها المالكة الشرعية للشركة ولست أنا، استطعت أن أقنعها بأن هند تشعر بالغيرة، وأنها أخطأت فيما فعلته معها، ولكن لا أريد أن يؤثر هذا الموقف على علاقتكما ببعضكما بعضا، فقد كنتما زملاء في العمل يومًا ما.

عندما حضرت هند، حاولت أن أتماسك، وألا تفضحني عيني بحبي، وشوقي، وندمي من قسوتي عليها. تحدثت معهما في البداية حديث عام، عن مغامرتي في محطة البنزين قبل أن آتي إلى هنا محاولة مني لتخفيف التوتر.

هند لم تنظر ناحيتي، وإن كان في قلبها تجاهي الكثير من اللوم، والكثير الكثير من الاشتياق، قررت أن تعود للعمل ولكن في مكان آخر، وقسمت مسئوليات العمل عليهما، وطلبت من كلا منهما ألا تتعدى إِحْدَاهُمَا على تخصص الأخرى.

بدأت سارة بالمبادرة والتحدث مع هند، وتناست الموقف وكأنه لم يكن. هند قبلت على مضض، وهي تنتوي إزاحتها من الشركة نهائيًا، ولكن على مهل .

ما يهمني هو هند، فسارة بالنسبة للشركة سيوجد منها الكثير، ولكن هند بالنسبة لقلبي، لا يوجد لها بديل، وكأني اتفقت مع هند اتفاق غير مصرح بأن نزيح سارة.

سنلغي جهودها وننسبه لغيرها، وسأجعل سكرتيرتها مُديرة عليها، ولن أكتفي بهذا سأتهمها بالتقصير طوال الوقت، سأبخس بقدرها وأعلي من شأن الأخريات، سأكافئ الجميع بعلاوة وأخصم من راتبها وأؤخره عليها، سأجعلها تُشعر أنها دومًا مذنبة بحجة أن أضعها في مواقف صعبة لاختبار قُدرتها على التحمل وانتمائها للمكان.

سارة عنيدة، ولا تستسلم بسهولة.

سارة تصدق وعودي الكاذبة.

سارة تقبل التحدي، وتستمر، وتقاوم.

حتى خارت قواها، وكرهتني، وكرهت المكان الذى استنزف كبريائها، وسلامها النفسي، وراحتها الجسدية، ومع ذلك عاتبتني بود، وطلبت مني أن أحافظ على وجودها في المكان.

سخرت من طلبها، مُتحديًا إياها، بأنها لن تستطيع الاستقالة، فأنا أعلم عشقها للمكان، وتفانيها في العمل.

قد كنت انتهيت من ضغطي عليها، ولم يكن في نيتي فعل شيء آخر معها.

فقد اقترب موعد زفافي، وجل تركيزي الآن موجه لحياتي الجديدة، مع من خُلقت في هذا الكون من أجلي.

لكنها قد أخذت قرارها بالرحيل النهائي.

لم أشعر بالندم على مافعلته معها، فـ هند ستتولى المهام على أكمل وجه، أنا أثق في قدراتها لأبعد الحدود.

ما لم أتوقعه يومًا، أن تثور سارة ضدي، وتوشي بسُمعتي وسُمعة الشركة، وتعلن كل أسرارها إلى المنافسين؛ حتى أصبحت سُمعتنا، ومصداقيتنا على المحك، وعليّ بذل مجهود خرافي لأثبت عكس ما تدعيه سارة، تلك المغرورة الفظة.

تخلصتُ من الأسر

كانت تسير حافية القدمين وجرحها الدامي ينزف بلا توقف، وكلما اندمل الجرح قليلا
تأتي خربشات مجهولة لتوقظه، فيتدفق الدم منه بقوة، ثم يقل النزيف تدريجيًا ليصبح قطرات متتالية.
كلما تجلط الدم موضع الجرح الأول، هدأت قليلا واستكانت، ثم إذا ما عبث أحدهم به هاجت كالذبيحة المبتور عنقها.
لم يكن وجود الجرح الخالد هو ما يؤلمها، بل نيشان العابرين على موضع الوجع لممارسة ساديتهم، وتجربة قدرتهم على إحراز الهدف في ثقب الجرح المفتوح.
اعتادت أن يأتي السهم من القريب، فالغريب لا يجرؤ على تخطي مساحتها الآمنة، لذلك أزالت كلمة "قريب" من قاموس حياتها. فهي تريد أن تحيا بلا أوجاع أخرى، وأما عن جرحها الغائر فقد تأقلمت معه.
ويوما ما كانت تسير بأمان بعد أن طوت صفحات الماضي الموجع، فإذ بصخرة تداهمها من الخلف لتسقط على رأسها، فترنحت، وشعرت بالدوار، وما عادت قادرة على الوقوف بقدمين ثابتين.
تنظر للعالم بعينين غائرتين، تقاوم السقوط بضراوة، تمنع نفسها من الصراخ أو طلب العون، تخشى أن تسقط السماء فوق رأسها أو تختفي من الوجود فلا تجدها.
ترى الشمس تتوارى خلف السحاب وكأنها تفر من مساعدتها، والسُحب تأتي سريعًا من كل صوب لتكون كُتلة غائمة رمادية اللون، كئيبة المنظر.
الرياح تتآمر عليها فتعبث بحركتها كريشة لا تستطيع السيطرة على اختيار طريقها، ورق الأشجار المتطاير يحوم حولها وكأنه يخفف عنها "لستِ وحدك".

هي أضعف مما يتخيله الجميع، لكنها يجب أن تظهر قوتها المزعومة التي يظن الآخرون أنها تتمتع بها.
تترنح بين الصحو والدوار، تعطي لنفسها أمر داخليًا بالصمود، ومواصلة المسير، فلن ترضى أن تعيش إلا كالجبال شامخة أو تموت كالأشجار واقفة.

وهنا، ظهر طبيب يدَّعي أنه قادر على تضميد هذا الجرح. مُشترطا أن تعطيه ثقة عمياء، رغم وجود الأمل والتفاؤل في كلامه، إلا أنها كانت تتوجس خيفة.
"ترى كيف سيتعامل مع جرحي! هل سيؤلمني؟ هل سيتحمل شخصيتي المتمردة العنيدة؟
حقاً لا أدرى ولكني سأترك الإجابة للزمن"
توقعت أنه سيعمل أولاً على تنظيف الجرح وتطهيره، فحينها سيتمكن من العلاج، دون أن تؤثر عليه أية تلوثات قديمة، ومن دون أن يتسبب ذلك في إيلامها لكنها فوجئت بطريقة أذهلتها. فهي على دراية مسبقة بقواعد الطب، وفن مداواة المرضى، ومع ذلك هذا الطبيب المزعوم يؤكد ارتفاع نسبة نجاحها.
تعتمد خطته على المُسكنات والمهدئات فقط! يضغط على الجرح، حتى يؤلمها ومن ثم يعطي لها جرعة مخدرة لتسكن الألم، فتهدأ قليلاً ما تلبث أن تزول جرعة المُخدر من أوصالها، حتى تتألم أكثر مما سبق. أسلوبه هذا يزيد من آلامها، وربما يضاعفه بمرات عما كانت عليه من قبل أن يظهر.

حينما نبهته إلي هذا، تعمد أن يضغط على جرحها بكل قسوة -حتى تطلب منه بنفسها أي مُسكن- ليتركها وينصرف.
ترقب أن تأتى له ذليلة خاضعة تطلب منه الدواء، لكنها خيبت ظنونه، وأجبرت نفسها على تحمل هذا الألم
"جرحى يئول للشفاء فدعني أداويه وحدي"
"حان وقت فك القيود، فلن أصبح أسيرتك بعد الآن"
"لن أعود إليك حتى إن آل بي مصيري إلى الموت"

أتخذت قرارها سريعًا، ونفذته فورًا بلا تردد، تركت له رسالة تخبره فيها بأنه طبيب فاشل.

"سأهرب بجرحي من سجن دواءك"

حينما قرأ رسالتها صُدِم، لكنه توقع أن الألم سيجبرها على العودة مجددًا، وحينما خاب رجاءه وطال انتظاره. ذهب يبحث عنها؛ فهي تجربته الفريدة، وضربة حظه السديدة.

لكنه كان يعود في كل مرة بخيبة أمل حتى يئس، وعاد أدراجه، يبحث عن حالة مرضية جديدة.

لم ينسها، يتذكرها من حين لآخر فيغضب من تمردها. لكنه لم يعترف أبدًا، بأن غبائه وجهله في التعامل معها، هو ما ضيعها منه بصورة أكيدة.

لم يكن في وسع مخلوق أن يستطيع مساعدتها سوى خالقها. فقد اتخذت منه العون والمدد، وعزمت أن تخوض الحياة بشعور الأولياء، واتخذت قبلتها الخلاء، ثم نظرت نحو السماء راجية ألا تهب عاصفة سوداء مُحملة بالأتربة وقالت:أنت عوني يا إلهي، لا تتركني وحدي.

فانهمرت السماء بالغيث مُلبية النداء.

لاخترتم الواقع

بدت غريبة بفستان زفافها على متن الطائرة، دون عريس يصطحبها. نزلت في بلد غريب عنها، لم تطأه قدمها من قبل، فستان زفافها جعل مخالب الروتين يذهب عنها. الكل يفسح لها الطريق، فهي عروس وحيدة سافرت لتلبي نداء الحلال. المتمثل في عريسها الذي لم يصل لاستقبالها بعد. أثناء وقوفها أمام سير الحقائب -لعلّها تستطيع أن تلحق بحقائبها لتحملهم، ترى حقائبها تمر من أمامها، ولا تستطيع فعل شيء، الكل منشغل بحاله- وجدت من يناديها، فإذا به عريسها قد وصل أخيرًا. نادى لأحد العُمال ليحمل الحقائب وتخرج معه، لتجد أصدقاؤه يستقبلونها بزفة مصرية، رأت فرحة في عيونهم لم ترها في ملامحه، عينيه تشي بأنه استيقظ لتوه من النوم، كان يساير أصدقائه في تلميحاتهم حول هذه الليلة الشهية، تعلم بداخلها أنه ليس على ما يرام، لكنه يحاول تمثيل الدور الذي وجد نفسه فيه.

هو عريس، فعليه أن يقوم بكل الطقوس التي تدل على ذلك، جميلة هي، وتستحق أن ترى فرحة عيناه بها، لم يحدث. فقد قاد سيارته صامتًا، وانطلق بها مُحاطًا بكم من سيارات الأصدقاء، حين وصل بالسيارة أمام المنزل طلب منها أن تصعد مع والده، الذي يقطن بالفعل مع ولده، وهو سيذهب ليحضر العشا

-وكأنه تفاجأ بقدوم عروسه، وأن عليه أن يحضر لهم جميعا طعام- رفضت الصعود مع والده، الذي تراه لأول مرة، وقررت أن تذهب معه، حوانيت الطعام مُغلقة قد كان الوقت بعد منتصف الليل. في آخر البلدة، وبعد محاولات من البحث، وجد محلًا ابتاع منه شطيرتان وكوبان من العصير، فوالده أخبره بأنه سينام ولن ينتظرهما.

حينما وصلا للشقة أخيرا المكونة من غرفتين وصالة، ودورتين للمياه "تعالي أفرجك على الشقة" لم يستغرق الأمر دقيقة. ثم قال: ناكل؟ أومأت برأسها؛ فكل تأجيل لما تنتظره

يعطيها فرصة للألفة مع زوج، لم تعرفه سوى أسبوع إجازته الماضية.

حاولت أن تكون رومانسية، قامت بوضع شطيرتها في فمه قبل أن تتذوقها، فرفض "أكلي نفسك". أكلت بالفعل فقد كانت جائعة من إرهاق السفر الطويل، كانت رغبتها الثانية هي النوم، حاول أن يسقيها من العصير بعدما راجع نفسه، ووجد أنه تصرف معها بقلة ذوق، فوقع العصير منه على السجادة فنظر لها "هتنضفيه مش كده؟"، ثم تناول عصيره، فما وقع هو كوب عصيرها.

قامت لتخلع طرحتها، فتطوع هو بفعل هذا، آلمها أنه لا يعرف كيف تزال الدبابيس، رغم سهولته. رأسها يئن تحت يده، وهو مُصمم على فعلها وحده، همت بمساعدته، حاولت أخذ الأمر ببساطة وأن تضاحكه، أو حتى تبدي الاعتراض، ولكنها تذكرت وصايا أمها أن تكون هادئة الأعصاب وتتركه يفعل ما يريد.

فظًا غليظًا هو، لم يهتم بتضاحكها. طال الوقت، إلى أن استطاع إزاحة دبوس واحد، حينئذ أخبرها أنها تستطيع التكملة. حاول أن يكون ألطف "العرائس دائما يلجمون شعرهم، وكأنه سيفر منهم". ابتسمت ابتسامة مصطنعة مجاملة، فقد آلم رأسها حقا، وأفسد تسريحة شعرها تمامًا.

يتصرف معها كالموظف الذي لديه عمل هام، وعليه إنجازه في أسرع وقت، دون الحاجة لمقدمات، أو تجهيزات تؤخر هذه المهمة. لم تتمنع، أو تتصنع الدلال فهي أيضا تشعر بأن هذا هو دورها الذي عليها أن تؤديه على أكمل وجه دون تباطؤ، فاللجنة تنتظر نتيجة الامتحان بفارغ الصبر، وعليها ألا تخذل أحدا.

وبالفعل همَّ بها لأداء الواجب القومي في هذا اليوم، حاول كثيرا حد انهاكها، واعترافه أخيرًا، بأنه سيكمل محاولته غدًا. لا تعلم ما المشكلة التي واجهته، فقد كانت مُسترخية ومُستسلمة له تمامًا، لعلَّ رغبتها في النوم جعلتها لا تدرك ماذا حدث حتى تؤول الأمور لهذا القرار .

قبل النوم سألها: ماذا عن اتصالات الغد بماذا سنجيب؟ فأخبرته أن" سنقول الحمد لله، فهي وحدها تغني عن أي شرح".

في اليوم التالي حاول، وحاول حتى رأى وردة الشرف تزين الشرشف. هنا فقط تركها وهو سعيد، بأن مهمته قد كُللت بالنجاح، كانت أول نسائه وكان أول رجالها، وكلاهما لم يكن يعلم شيء سوى أقوال السابقين.

يتعامل معها كدُمية، عليه أن يقوم بتطعيمها يوميًا، من مصل حيواناته المنوية، علَّ زرع البذر يجني طفلًا، ليثبت أنه كامل الفحولة فتصبح صورة الزواج مكتملة أمام الجميع.

جاءت الأم لتستقر معهم، وتمارس سلطة اللقب الجديدة "حماة".

أصبحت الآن شقة عائلية مكونة من أم وأب، وهو وزوجته.

الأم عجوز متصابية، تغار من العروس كأنها ضُرتها، تتذرع الحجج لتقضي جُلَّ وقتها معهما، حد جعلها تغفو، أثناء مشاهدة فيلم السهرة على الأريكة، ولا أن تتركهما يستمتعان بالمشاهدة وحدهما. لا تفارقهما إلا إذا رأت ابنها يدخل في مرحلة النعاس، هنا فقط تنصرف لغرفتها في اطمئنان.

والده يعلم طبيعة زوجته المُتسلطة فلم يكن يلقي بالًا سوى بعمله فقط، يأتي من دوامه يأكل، يشاهد التلفاز في غرفته الخاصة، دون الاكتراث لما يحدث خلف كواليس حياة ابنه وعروسه.

الأم تقوم بدور سيدة القصر على أفضل وجه، تتصنع الحب بدهاء. فتأمر العروس أن تستقبل زوجها بالماء والملح لتغسل قدميه المنهكتين طوال اليوم "هذا سيجعلك أقرب لقلبه" تطرب والزوجة تجلس تحت قدم ابنها كالجارية ليلاً، وكخادمة لها نهارًا لتنول رضاهما.

الزوج، هو الابن المدلل لأم متسلطة، يعلم ماذا يجعلها تضحك. يسكب الماء على زوجته على سبيل المزاح، وحينما تغضب الزوجة، وتقوم لتبدل ملابسها، لا يهتم بترضيتها، بل ينعتها بالنكدية.

يتعمد حدوث مشاجرة على أبسط المواقف كـ "إزاي تحطي طبق البطيخ في الثلاجة" ليصل صوته الغاضب لغرفتها المجاورة فتبتهج بأنها أنجبت ذكر، لا صوت يعلو عليه، ثم تأتي للزوجة لتخبرها بمكر شديد بأن وليدها صعب المعشر وإذا تذمرتِ لا أأمن عاقبة ما سيفعله، فهو في غضبه أعمى لا يرى.

الزوجة غريرة، حديثة العهد بكل ما يدور حولها، تزوجت تقليديا بعريس "لقطة" المُغترب صاحب جُعبة الأموال الممتلئة، رمز الأمان في هذا الزمن القاسي، حد حسدها الجميع عليه. لم يعلموا بأنه يقتر عليها في كل شيء، فالأم هي أمينة صندوق المنزل. لا داع إذن لشراء شامبو للشعر فهو يتلفه، ولا داع للطهي يوميًا هذا إهدار للزيت والملح. لا يوجد ما هو أشهى من الجبن والطماطم، أما إذا ألمَّ بالعروس وجعًا في أسنانها مثلا، فهي حتما تدعي لتتنول نزهة مع وليدها. إذن لتضع زيت قرنفل، أو تبتلع أقراص مسكنة كانت قد جلبتها معها.

مُصاب بداء الخرس معها، وبالثرثرة مع أمه، مما أشعرها بأنها عزول بينهما، أصبحت حياتهما كضيفين في فندق مزدحم أجبرا على الاشتراك في غرفة واحدة. لا يربطهما أكثر من هذا، عدت الأيام عليها بطيئة كسلحفاة كُسرت ساقها في حادث مجهول.

مع الوقت أصبحت حياتها كزوجة لا تحتمل، فهي أضعف من أن تواجه المجتمع بلقب مُطلقة، وهي مازالت عروس أشهر -الجُبن وحده ما كان يرغمها على البقاء متزوجة-.

حسم هو الموقف، وبحيلة ما قرر أن يعيدها إلى مصر، على أن يلحق بها بعد ذلك. ظلت مُعلقة عامًا كاملًا، لا تعلم عنه شيء، حتى ارتضت بكونها زوجة ملقاة في بيت أهلها ككم مُهمل، تنتظر أن يحكم الله في أمرها، لتستلم ذات يوم قسيمة الطلاق كصليب الغدر يخترقها، وهي تعرف بأن تم زفافه من أخرى..

***

لم تكن لي تجربة جنسية من قبل، ولم أكن أفعلها في الحرام، مهما ألحت عليَّ غريزتي لإشباعها، حاولت أمي أن تساعدني بشتى الطرق فقد كانت تجعل بنات صديقاتها، يتصلن بها لأرد أنا نيابة عنها، متذرعًا أية حجة، علني أخرج عن خجلي وصمتي.

وكن البنات وأمهاتهن يفهمن -كلًا على حدة- أن أمي بالقطع تريدني التقرب بغرض الزواج، ولم لا؟ فمعي شهاداتي الجامعية، وأموال أبي، حتى وإن لم يكن لي مستقبل عملي واضح المعالم، أحببت لعبة الاتصالات، ولكني أريد أن أتخطى هذه اللعبة لتصبح حقيقة.

لكن كيف أطلب سيارة، وأنا لم أمارس فن القيادة من قبل. كيف سأتعامل معها، وأنا لا أعلم استخدام ذراع القيادة بسرعاته المتعددة. متى أقف؟ ومتى أسرع؟ ومتى أهدئ؟
كيف لي الاهتمام بها وعنايتها، وأنا لا أعلم هل ضروري أن أنظف مكان استخدامي لها مثلاً، أم أنها ستتولى هذه المهمة.
لكن أمي قطعًا ستساعدني، طلبت عروس على ذوق أمي الخاص، فهي تعلم بأن أي أنثى بالنسبة لي ستفي الغرض، شرطي الوحيد ألا تكون قد ارتبطت من قبل فكوني أول رجل في حياتها، لن يجعلها تكتشف بأنها أولى تجاربي.
واستلمت السيارة، واستخدمت ذراع القيادة كخير ما يكون، لكن كعادة المبتدئين نبدأ بالسرعة والنتيجة أن السيارة تقفز، ثم تقطع الحركة.
ونعاود مجددًا، وهكذا إلى أن انتهى وقودي، وتعللت بخوفي على السيارة، مع الوعد بالمحاولة في اليوم التالي.
مرت الأيام، وأنا على غشمي في التعامل معها، ولولا صلابة السيارة وتحملها لي، لأقسمت بعدم طاعتي.
بعد شهور أصبحت أجيد القيادة، ليس هذا فقط. بل أصبحت أخترع طرقًا جديدة لأسير فيها، وهي تطاوعني في كل شيء.
لكن ظل في حلقي غصة كونها شهدت على خيباتي الأولية في استخدامها.

لم أتحمل هذا، وكما تعلمت القيادة في الحلال، سأستغنى عنها بالطلاق.
فقد اكتفيت منها، خاصة وأني لم أكتب شيء يكسر ظهري إذا ما أردت البيع.
الآن، أنا مع عروسي الجديدة، كعنتر زماني.
أراها تحسد نفسها، وتحاول إرضائي بشتى الطرق.
فمعها قائد محترف،وكم أسمعها تهاتف صديقتها بأن طليقتي قطعاً خسرت الكثير فقد كان معها زوج لا يعوض.

******

شَعرت كأنها سفينة قد تمزقت من مراسيها، ثم رميت على غير هدى في بحر هائج، وقد تحطمت البوصلة.
فبكت بحرقة على فرحتها المغتصبة، وعذريتها المنتهكة، وظلمها البين دون سبب واضح، وصرخت منهارة، وكاد أن يغشى عليها، إلا أن فتحت عينيها فزعة لتجد بأنها كانت تحلم.
نهضت سريعًا لتنظر إلى التقويم على الحائط، لتجد أنها أتت أمس من المطار، بعد أن أخبرتها الجالية المصرية بحدوث خطأ في أوراق إقامتها، وأن عليها الرجوع لبلدها، لتتفاجئ أن عريسها الذي كان من المفترض أن يستقبلها في المطار، قد أصابه حادث تصادم أودي بحياته، وأنها أصبحت أرملة قبل الدخول. فقد عادت بفستان الزفاف نفسه، الذي خرجت من بيت أبيها ترتديه.
وكم كانت مُحطمة، ومُنهارة نفسيًا بعد سماع خبر وفاة زوجها المنتظر، إلا أن الكابوس الذي رأته جعلها تتمتم "الحمدلله".

ولادة أحمد

لقد أنجبتُ ابنك بالأمس، سميتُه "أحمد". تمنيتُ أن تشهد هذه اللحظة وتكون أول من يسلم "أحمدنا" للحياة. أراك كنت ستسخر مما فعلتُه وقت الولادة، فقد فاجأتني ولادته في المنزل، وهممت بفعلها وحدي دون مساعدة. جلست القرفصاء، ومددت إصبعي السبابة والوسطى لأقيس حجم المكان الذي سيخرج منه، فوجدته في اتساع مبشرًا بقدوم الصغير. وليس هذا فحسب، لقد لامست شعر رأسه، وهنا صرت أحثه على النزول وأنا أصيح فيه:

" هلم بنا يا صغيري، أنا في انتظارك، سأحاول أن ألتقطك بيدي لا تقلق.

لا أعلم إن كانت الدنيا ستكون مُمتعة بالنسبة لك، أم ستفعل معك مالا يروقك، ومن ثم تلقي اللوم عليّ وعلى هذه اللحظة، ولكن أنت الآن في وضع لا يسمح لك بالتراجع، فقد اكتمل نموّك حد أن يلفظك رحمي من داخله، لتكون في محيط أوسع يليق بهذا النمو".

شعر صغيري بعدها بالقلق، فتوقف حجم الألم والاتساع هنيهة، وكأنه يستوعب ما قلته توًا. حاولت أن أحفزه للنزول وحده سريعًا، ودون مساعدتي قائلة:

" ألم تشتق لرؤية من كانت تحكي لك، وتنشد لك وتتلو معك القرآن؟ ها أنا ذي، أنا الطفلة الكبيرة التي وعدتك بأنها ستكون لك أختًا، وصديقة قبل أن تكون لك أمًا، أنا حبيبتك الأولى في قاموس عشقك الفارغ".

شعرت به يحاول مُجددًا، وكأنه قد حسم قراره على الخروج للحياة، أقيس حجم المكان أجده قد اتسع قليلًا، ولكن رأسه مازالت كاملة بالداخل.

تمنيت لو أنك جواري لتثيرني جنسيًا، فقد شاهدت في أحد الأفلام الأجنبية، أنها طريقة فعالة لتحفيز المولود على الخروج، علّه يمنع حدوث هذه المهزلة الأخلاقية لأمه، ويذكّر

أبـاه، بـأن ابنهـا لـن يسـمح لـه بـالاقتراب مـن أمـه مجـددًا. أراك كنـت سـتعترض وقتهـا وتتهمنـي بـالجنون، أو بـأنني فـي حالة هذيان ولاشك. لم أجد مفرًا من الاتصال بالإسعاف الذي أدهشني بسرعة مجيئه، تخيلتك معي آنذاك، وأنا أصرخ فيك قائلـة "شـعري". وأنـت تنظـر لـي بتعجـب "مالـه؟"، أخبـرك بانفعال: "اجلب لي غطاء للرأس"، ناسية تمامًا، بأن عبائتي تحوي "زعبوط" سيفي بالغرض. نزلت على المحفة محمولة، صارخة -ليس من الوجع فقد كف ابننا عن المحاولة، ولكن من المفاجـأة- ، فقـد آتـى طبيـب إلـي متحمسًـا، أبعدتـه بيـدي صارخة "أنا أريد طبيبة".

أقسم الطبيب بـالله: بأنـه لـن يـرى منـي شـيئًا، وأن تمرسـه يمكنه من أن يفعل هذا، وهو مغمض العينين، لم أقتنع قائلة "أرفـض أن تلمسـني". أراك مُحرجًـا يـا حبيبـي مـن تصـرفاتي. فـي ظـل هـذه المناوشـات، كـان صـغيري قـد رفـع الحرج عن والدتـه، وفعلها وحده، هنـا أتـت الطبيبـة مـع طـاقم تمريض ليقصوا الحبل السُري، ويزيلوا عن صـغيرنا مـاعلق بـه، مـن غبـار رحلتـه. أراك تحملـه، وتشـمه ثـم تعطينـي إيـاه. أضمه إليّ بقوة، ثم أنتبه لصغر حجمه فأحضنه برأسي وكأنني أنسى به الكون.

حاولوا أن يأخذوه ليرتدي ملابسه، أعطيته لهم مؤكدة بـأن "ابني سيرقد جواري، ولن يذهب لغرفة الأطفال".

رفضـوا فـي البدايـة، ولكننـي كنـت علـى أتـم اسـتعداد، لأن أغادر به فورًا، ولا أن يغيب عن عيني لحظة.

هل حقاً كنت معي، أم أنني مازلت أرفض أن أصدق، أنك تركتني حاملًا ورحلت عن الحياة؟

أب على ورق

جلست وفاء مترددة، تستجمع قواها الخائرة بصعوبة، القلم يتراقص بين أناملها مُرتعدًا، تهم بكتابة رسالة لطالما تردد صداها في نفسها عميقًا.

أخذ الأمر منها جُهدًا خرافيا، لتستطيع أن تخضع نفسها لهذه المُهمة العصية الشاقة.

وأخيرًا أخذت شهيقًا عميقًا وحسمت أمرها، وأطلقت العنان لقلمها ليلطخ الورقة البيضاء الناصعة أمامها بجروح قلبها، وآلام فؤادها.

بدأت تخط تلك الكلمات، التي طالما قبعت كالصخرة على صدرها، فأخرجتها من أعماق روحها وكتبت:

أبي العزيز:

بعد التحية/

علك تتعجب من مراسلتي لك، ونحن نعيش معًا تحت سقف واحد، لا تفرق بيننا المسافات رغم أن ما بيننا بُعد المشرقين.

أريد أن تعلم بدايةً أن الأمر لم يكن سهلًا عليَّ، ولكن ما باليد حيلة فحينما يصبح الزعيق، والغضب لأبسط الأشياء هو سيد الموقف، يصبح تجنب المواجهة هو الحل الأمثل.

أراك صرت تؤذي أقرب الناس إليك، وأنت لا تدري أو ربما تدري، لكنك لا تكترث.

فذاك أخي الصغير الذي طالما وعدته بأشياء كثيرة لم تفِ منها بشيء، فتركته يعيش في أحلام لا يستيقظ منها أبدًا، بين عالم من الوعود المُبهجة، وآخر من الوقائع المريرة، مما أثر عليه سلبًا، ودفعه للجوء لأصدقاء السوء، في عالم لطالما يكثر فيه أمثال هؤلاء واضعًا حياته، ومستقبله على جناح غمامة في مهب ريح، لا يعرف لها مستقرًا ولا قرارًا. فبدأ بتعاطي المخدرات لينزع نفسه من عالمه المرير، إلى عالم السعادة الزائفة، والبهجة المؤقتة.

نعم يا أبي، ابنك الحبيب صار مُدمنًا، وأنت لا تدري عنه شيئا، بل إنك لم تلحظ كل التغيرات الجسدية التي طرأت عليه رغم أن هزال جسده وغور عينيه، وأصوات ضحكاته الحمقاء المستمرة، التي تعلو لأتفه الأسباب لا تخفي نفسها. لكنك كنت وأبدًا، لا تهتم لما يحدث حولك على مرأى عينيك.

وتلك المرأة المسكينة، التي وهبتك روحها وحياتها وأولتك كل اهتمامها فكابدت معك مشاق الحياة، وشاركتك أفراحك وأحزانك، وأمضت من سنواتها زهرة شبابها، وكانت لك الحضن الحنون، والقلب الرؤوم، ولم تكن لك يومًا جسدًا حرون. هل تساءلت يومًا كيف أوفيتها حقها! لقد قابلت إحسانَها بالإساءة، وعطفَها بالقسوة، وعطاءها بالحرمان فأنهكتها الأمراض التي لم تكن لتصيبها لولاك. فلم تكن طلباتها البسيطة شاقة عليك، بل إنك كنت تحرص على حرمانها من أبسط حقوقها، وتتعمد إحراجها، وإذلالها أمام الجميع، مُتناسيًا إنسانيتها ومشاعرها. فهي لا تتعدى بنظرك، أن تكون مجرد صنم كثير الحراك.

أما شقيقتي الكبرى، التي لطالما كانت فخرَك الذي تفتخر به أمام الآخرين، وبكرَك التي أضْفَتْ لحياتك السعادة العظيمة. كيف تأتَّى لك أن ترفض أن تبتاع لها جهاز العروس، لمجرد عدم اقتناعك بالعريس، وكأنها خُطبت له دون علمك أو إرادتك، وكيف طاوعتك نفسك بأن تصيح سبب إحساسها بالهوان، عندما أعرض عنها خطيبها، وأنهى العلاقة التي بينهما هربًا من بُخلك الشديد.

أراك تتعجب، لك كل الحق في التعجب، فأنت معذور مِن أين لك أن تعلم بأن تصرفاتك التي تفعلها بحسن نية، قد تتسبب في مرض إنسان حد الموت.

أما أنا، فقد عزمت أمري بالعزوف عن الزواج، ليس لأنك تسببت في عقدتي، فأنا أتمنى أن أتزوج حتى أهرب من هذا الجو المليء بالأمراض، ولكن خشية أن يكون زواجي برجل مثلك، أو فيه خصلة من خصالك، التي طالما كرهتها، وتمنيت زوالها عنك وخوفًا من أن يفعل زوجي ما تفعله أنت مع أمي.

لا تتذمر من صراحتي، فهذه فرصتي الآن لأخبرك بكل شيء، لا أستطيع مواجهتك به.
ما أريده هو أن تنتبه قليًلا لدورك كرب أسرة، مسئولًا عن المودة والرحمة.
فلتنقذ أخي من براثن المخدرات دون فضيحته، ومعايرته، أو إلقاء اللوم على أمي.
ولتبتسم في وجه أمي، وتتودد إليها بطيب الكلام دون أن تَشعرها أنك تتصنع الحنان. اجعل حبك المخفي لها يظهر على السطح، وهو سيفعل كل شيء.لا تخجل من التعبير عن حبك، وامتنانك لها فهذا يزيد من قدرك لديها.
ولترسم الفرحة على وجه شقيقتي في يوم عرسها بعد أن تفي بوعودك لها، وتجعل العريس الهارب يعود من جديد يطيب خاطرها.
فلتعد إلينا، ولتكن لنا كما هم الآباء لزوجاتهم، وأولادهم.
ملحوظة: برجاء تمزيق الرسالة بعد قراءتها، فلا أريد أن تطلع عليها أمي أثناء ترتيبها اليومي.
ابنتك / وفاء

طوت الرسالة، وقامت بوضعها في خزانة ملابسه، عادت لغرفتها سريعًا وقلبها يدق بانفعال. لم تلق نظرة أخيرة على ما كتبت، حتى لا تتردد فتحذف كلمة، أو تمزق الرسالة فيتفتت معها آخر أمل عقدته على أبيها قد كانت لحظة شجاعة تلك التي كتبت بها كلماتها وحدثت بالفعل، وعليها أن تنتظر ردة الفعل.
مر يومٌ، وتَلَتْهُ أيام مرت بتثاقل، كما لو أنها سنوات. لكنها لم تشعر بأي فعل ينبئ بأن أباها قرأ الرسالة .أخذت أفكارها تتلاطم في عقلها تلاطم الأمواج.
أخذت تحدث نفسها: بالتأكيد قرأ رسالتي، ويفكر في رد مناسب، فهو بطبعه صامت حد الخرس ولكن ألا يريد مناقشتي في شيء، ولا حتى في كوني لا أستطيع محادثته مباشرة! أليس هذا الأمر وحده يستحق الاهتمام!

ظلت قرابة أسبوع كل يوم تلقي نظرة على خزانة ملابسه، لتبحث عن أي شيء يدلها أنه قرأ رسالتها، لكنها عبثًا حاولت.
وأخيرًا أخذت الرسالة غاضبة، وقامت بتمزيقها : "أعتقد أسبوعًا كاملا كفيلا بأن تقرأها مرات عديدة."
ومر شهر ولم يحدث شيئًا يُذكر، إلا أن صدمة شقيقتها ازدادت فسقطت صريعة الضغط العالي، وأخذت تنتابها حالات إغماء مُتكررة. وهنا فقط انتبه أبوها لما فعله، واستيقظ من غفلته التي طالت وامتدت، قرر أن يقوم بفعل ما يرضيها. كما أخبرها بهذا شقيقها الأكبر حينما أتى من سفره.
لم تكن مفاجأتها هذه رغم غرابتها، بل كانت صدمتها الأكبر عندما أخبرت شقيقها بما كان من أمر رسالتها، التي مزقتها.
فأجابها قائلا: "لم يقرأ رسالتك" نظرت له متعجبة منتظرة تفسيرًا منطقيًا فأكمل: "رآها، قرأ أول سطرين، وشعر بأن كلماتك ستفتح له أبوابا كثيرة، لا يريد ولوجها فامتنع عن قراءتها، وأخبرني غاضبًا عن اختفائها من خزانة ملابسه."

عشق وخيانة

تتكئ بمرفقها على صدغها، رافعة صورته أمام وجهها. يظهر فيها على شاطئ البحر، بكل زهو واضعًا يديه في جيوبه. تذكرت أنه انتبه لها، وهي تقترب منه لتصويره في غفلة منه، فبدت نظرته صارمة مُبتسمة.

لم تهتم لنظرته والتقطت الصورة، فهي تهوى تصويره في مختلف الأوضاع، حتى وإن أبدى اعتراضه.

ابتسمت عندما تذكرت الموقف وقالت في نفسها:

"ليتني مكانها، لأنال لقب سيدة قلبك المتفردة. ما فائدة أن تكون زوجي، وقلبك مع غيري؟ نعم، لم تقصر تجاهي، تحترمني كثيرًا، تراعي مشاعري، تخشى جرحي، لم تهني بكلمة، ولم تؤذني بنظرة.

لكنني أعلم جيدًا، بحدس المرأة الذي لا يُخطئ، أن هناك أخرى، أنت تعشقها، حتى وإن كانت قابعة في خيالك، وليست في واقعك. أرى قلبك يرتل رسالة عشقه لها، كناسك زاهد أمنيته صك الغفران.

ترى لماذا افترقتما؟ هل تمردت عليك، أم أن غرورك تسبب في ضياعها منك؟ هل قوة تحملها لتقلباتك كان أقل من المتوقع، أم أن سرعة ضجرك بالأشياء طالتها؟ ترى هل عرفتها قبل زواجنا، أم بعده؟

إلى متى يا زوجي الحبيب، ستظل تعشق امرأة سواي؟ لماذا يا رجل المبادئ، لا تعتبر هذه خيانة لي؟ نعم، هو قلبك، وليس لك سلطان عليه، وجسدك معي، واسمك لي، وأبناؤك مني.

لكن كيف سيفيدني كل ذلك، و روحك تهيم في محيط العشاق ليلًا باحثة عن مبتغاها، وقلبك الذي لم أتمنه لي سكنًا، بقدر ماتمنيته لي مقبرة لا أخرج منها أبدًا، تدفن في أعماقه معشوقتك الأزلية؟ لا أحد يشعر بما أعاني، قد تلاحظه أنت،

وتدركه بذكائك، الذي لا أشك لحظة واحدة فيه، لكنك تبذل أقصى مافي وسعك، للمحافظة على البيت.

تقوم بدورك كأب على أكمل وجه -أو بقدر ما تستطيع أن تفعل-، لم أحتجك يومًا إلا ووجدتك، أو اعتذرت عذرا فوريًا، لا أستطيع حينها سوى تصديقه، تطلبني كل ليلة وكأنها أول ليلة، فأنا زوجتك، وأم أبنائك وفقط. تتعامل معي لأنني أنتمي إليك، شيء يخصك، لا تقبل المساس به.

ترنو إلي بتقدير مصحوب بإعجاب، مع نظرة اعتذار دائم، يرفض كبرياؤك أحيانًا كثيرة أن يدعها تظهر. أتعلم يا عشقي الأول و يا رجلي الأخير، بأن سعادتي بجوارك تفوق بمراحل اشتياقك لها؟ فأنا أشتاقك وأنت بجواري، و أنت تشتاقها، وهي في منأى عنك.

قل لي إذن: من منا يعشق أكثر؟

أما فكرت بأنك لو تمكنت منها لزال عشقك لها؟ هل تتوقع أن عودتها إليك، ستنبت زرع الاشتياق، بعدما سقاه الجفاء طوال السنين؟ أنت تدرك بداخلك استحالة العودة، وإلا ما كنت لتكون معي الآن.

وطالما أنا واقعك لِمَ لا تحوّل عشقك السرمدي إلي؟ لِمَ لا تعطني الفرصة كاملة، لأعشقك بطريقتي؟

لم تفرض عليَّ شيئًا أبغضه فقط لأنال رضاك. لِمَ لا تترك لي المساحة الكاملة لأحبك، وألهو معك؟ لِمَ لا تطلب مني أحيانًا فعل أشياء لإثارة متعتك؟ لِمَ لا تسمح لي أن أفعلها برغبة متوحشة في غوايتك، علّيَ أسرق مفتاح قلبك عنوة، وأفتحه سريعًا على حين غفلة منك، لألقيها خارجه، وأتربع أنا متمددة فيه، متوغلة في جميع أنحائه، تاركة أثري في البطين الأيمن والأيسر، وعطري في الصميم، وأغلق الباب خلفي جيدًا، كاسرة المفتاح الوحيد وحين تستيقظ من الدهشة، تجد الأخرى مُلقاة في خيالك كخرقة بالية. فتتعجب يومًا، أنك أردت الاقتراب منها، فتهز رأسك سريعًا لتسقطها منه بلا رجعة، وتسعد بأن معشوقتك، هي نفسها زوجتك، القابعة جوارك. وحينها سأعطيك الفرصة كاملة لتعشقني بطريقتك.

تستيقظ من شرودها باسمة، وتنظر لوجهه النائم جوارها، كنظرة الأم لوليدها الرضيع، فتمسد على شعره، وتطبع قبلتها على شفتيه، فينظر لها نظرة نائم استيقظ على ضوء الشمس، تتسع ابتسامتها قائلة: تصبح على خير يا حبيبي.

لم يستطع اللحاق بالنوم فقد فر مهرولًا إزاء هذه القُبلة المفاجئة التي رافقت نهاية حلمه، وكأنها المشهد الذي كان يجب حدوثه.

نهض ليتجرع كوبًا من الماء، وتناول ثمرة فاكهة، ثم عاد ليتدثر بفراشه؛علَّ الأرق يهرب عن طريق الدفء، يتصفح الانترنت في ملل لعله يجد من تسليه، حادثها على الشات لساعات، أرسل لها رقم هاتفه.

لم ينتبه، إلى أنه لم يغير وضع الهاتف إلى الصامت. فهو لم يتوقع أن تهاتفه سريعًا هكذا. يتردد في الرد علي مكالمتها، يتململ في جلسته، ينظر لزوجته وهي لازالت نائمة. يمثل دور النائم الذي استيقظ على صوت هاتفه. يرد عليها بصوت هامس، كأنه يأتي من الأعماق.

أدار وجهه لطرف السرير وبدأ يتحدث بخفوت، فزوجته تغفو بجواره، ووجهها ناحية الطرف الآخر من السرير.

فتحت عينيها واسترقت السمع، استمعت لمحادثته وتأكدت من خيانته لها.

تنزل دموعها تتوسدها، تغمض عينيها، تكتم نحيبها محاولة كتمان بركان لهيبها، تهمس لذاتها بكلمات تذكرها بضرورة استخدام عقلها: "لن أواجهه، لن أثور لكبريائي المهدر، ولأنوثتي المنتهكة، لن أهدم بيتي وإن كرهت خيانت. لعلي في كابوس."

يشعر بنهنهتها، فيغلق الهاتف سريعًا، لاعنًا المعاكسات، التي تأتي بعد منتصف الليل تحت شعار " الرقم خطأ."

يقترب منها بكل براءة، ويقبل رأسها من الخلف قائلًا: "تصبحين على خير يا حبيبتي"

تماثل

تمشي بخُطى ثقيلة على شاطئ البحر، يداعب النسيم وجهها، فلا تلتفت، ويلامس البحر قدمها، فلا تكترث. يلاطفها هواء البحر، حد انتزاع قبعة رأسها، فتكتفي بوضع يدها عليها محاولة تثبيتها فوق شعرها المتطاير خلفها، ثم في محاولة ثانية له، تنزعها عنها، مُكتفية بنظارة الشمس الضخمة التي ترتديها. ليس حماية من أشعة الشمس، لكن لتعطيها إحساس بأنها منفصلة عن العالم الخارجي.حافية القدمين تسير، تحمل صندلها المفتوح وقبعتها بيدها اليسرى، وبيدها اليمنى تحاول أن ترفع بها قليلا فستانها المائل للأزرق لكي لا يبتل.

تنظر في الفراغ، رغم ماحولها من ازدحام. أطفال يتسابقون لنزول الماء، وآخرون يبنون بيوتًا رملية مُزينة بالقواقع، والكبار منهم يجلسون تحت المظلات يأكلون، أو يقرأون، أو يثرثرون، أو صامتون... تشعر بأنها غير مرئية؛ فالأطفال يجرون حولها، غير عابئين بما تفعله حركتهم هذه بإلقاء ماء البحر عليها. هم لا يعبأون بها، أو بغيرها، هم فقط يلهون باستمتاع، وليس قضيتهم أنها تمشي أمام الجهة التي يخرجون منها من البحر، في عجالة تشي بسباق، أو مشجارة، أو مجرد لعب.

أخرجتها شذرات الماء، التي لطمت وجهها من انقطاعها عن العالم المحيط، وكأنها فوجئت بوجود هذا الحشد البشري حولها فخرجت من الشاطئ كله، عازمة الذهاب إلى الفندق الذي نزلت فيه، فور وصولها رأس البر، لقضاء نزهة ترفيهية بعد موت أمها، علها تنتهي من حالة الحداد الداخلي التي تعيش فيها

لَمَحَتها عن بُعد، جالسة في شرفة شقة في الدور الأرضي، أمامها المصحف الكبير. قالت في نفسها: أمي كانت تفعل هذا. لم تبعد عينيها عن هذه السيدة العجوز، فهناك شيء أقوى يشدها أكثر من مجرد وضعية قراءة المصحف. وسعت في

خطواتها، لتدنو منها أكثر، وكلما اقتربت، اتسعت عيناها في غير تصديق.
وقفت قبالتها مذهولة، يفصل بينهما درجات ثلاث، فمن تراها نسخة طبق الأصل من أمها.
انتبهت السيدة ذات الوجه الأبيض، المشبع بحُمرة تشي بجمال فطري. رفعت رأسها مُحدقة إليها، منتظرة تفسير لهذه النظرات المقتحمة لخلوتها التي لم تحول بصرها عنها، لكنها وجدت هذه العيون التي تتفرس فيها بإلحاح، تتحول لعيون باكية، تحاول جاهدة منع انجراف الأمطار.
ألانت السيدة ملامحها، وبنظرة تحمل من المودة والطيبة، والابتسامة الحانية قالت: هل ملامحي مألوفة لديك؟!
أجابتها بهزة رأس تعني "نعم" مع محاولة لَلابتسام باءت بالفشل.
لم تنطق، رغم صراع الكلمات في نفسها للخروج "افتقدتك يا أمي. افتقدت حديثنا الدائم معًا، افتقدت طعامك ذا الرائحة الخلابة والمذاق المُميز، افتقدت وجودك، وصوت ضحكتك وابتسامتك ومِزاحنا، وكل الأشياء التي كنا نفعلها معًا، وأفتقد أكثر لخططنا التي كنا ننتوي فعلها، وسبقنا الفراق فحال دون إتمامها، أفتقد حضنك الحاني ودعواتك الصادقة. كنت أشعر بدنو الموت من أجلي، فقد شممت رائحته وسمعت حفيفه، لم يخذل توقعي وجاء، ولكنه صدمني بمجيئه. فقد جاء من أجلك يا أمي وليس من أجلي.
لعله علم بحفاوتك، وترحابك الصاخب بمن يلج بيتنا ضيفا، حتى وإن جاء بلا موعد سابق، فأتى فجأة على عجل ليأخذ وديعة الرحمن فيسلمها له نقية، طاهرة، مُحبة للجميع.
أراه قد سألك عني فأخبرتيه بأنك ستكونين مكاني، وبأنني مازلت صغيرة، وبأنكِ حتما لن تتحملي صدمة فراقي، فآثرتي أن ترحلين معه وتتركيني سليمة في دنيتنا الرائعة التي

أبغضها، والتي كنتي قد زهدتيها.
لَمْ تكوني تقوي على فراقي إن فعلها -أعلم- ولكن من أخبركِ بأنني سأقوى على فراقك؟ لماذا كنتي تنظرين لي على أنني أبية، صامدة، قوية، لا تقهر...؟
أأخبركِ سراً يا أمي؟ ها أنا الآن أنهار وأتفتت قطعا صغيرة لأصبح كالحصى المتناثر على الطرقات. فهلا جمعتيني لأصير صخرة كما كنت، أم يأتي من يجمعني ويلقي بي في مدفأة عتيقة لإشعال الجمرات فأصير رمادا منثورا."

فاضت دموعها كفيضان النهر بعد كسر السد. أزالتها بأطراف أصابعها سريعًا، ثم اعتذرت منها، وانصرفت مهرولة.
في اليوم التالي، رأتها عن قُرب أثناء سيرها الفردي على شاطيء البحر. الرؤية الآن واضحة في ضوء الشمس، وبعيدًا عن أي تهيؤات، أو التباس. إنها تقف أمام نسخة كربونية من أمها. لا تتضمن الملامح المنسوخة فقط، لكن أيضا حجم الجسد، و أسلوب انتقاء الملابس..
وقفت قبالتها وبدأت في الاقتراب رويدا رويدا.
نظرت السيدة تجاهها، اتسعت ابتسامتها، وكأنها كانت تنتظرها.
بادلتها الابتسام بابتسامة متوهجة مُحبة، وكأنها مفتاح العبور لعلاقة سوف تنبت على أرض ملؤها الحرمان.
جلست جوارها على المقعد الخالي دون أن تسمع ردها بالموافقة "تسمحيلي؟"
مدت يدها تصافحها قائلة: مُنى.
- وأنا اسمي زيزي. قالتها، وكأنها تفتخر باسمها، الذي يشي بصغر سن صاحبته، وأضافت: ترى من عزيز لديكِ أشبهه هكذا؟
أجابت بزفرة حارة ناظرة في الفراغ: تشبهين أمي كثيرا

- رحمها الله- تركتني منذ عام مضى، ما زلت لا أستطيع استيعاب كيف حدث ذلك؟ لم أتخيل للحظة أن ترحل عن الحياة وتتركني، فكيف للشمس ألا تسطع كل يوم؟ أمي كسُنة كونية وجودها لا خيار لها فيه، هكذا كنت أظن.

ثم أضافت بحماس: أمي كانت تختم القرآن كثيرا. مصحفها لم يفارقها، ولا حتى في أيامها الأخيرة في المستشفى. أفتقدها للغاية. لم أصدق أنني سأراها مرة أخرى، ولا حتى بشبيهة لها...

تنصت السيدة إليها بتمعن، وعيونها متأثرة بما تقوله، لكنها لم تضف أي تعليق، إلى أن خرج شاب وسيم من البحر، وأتى بخطوات واثقة، متسائلا بنظراته عن هذه الفتاة التي تجلس مع عمته؛ فأجابت السيدة وكأنها تنبه مُنى لقدومه قائلة: أحمد ابن شقيقي الوحيد، ثم تابعت: مُنى.

شعرت مُنى بالإحراج إزاء وصول هذا الشاب، طويل القامة، أصلع الرأس،خمري البشرة،عاري الجذع، صاحب النظرات الثاقبة، فقامت مُعتذرة بأنها تأخرت على أبيها.

تتابعت اللقاءات، ومع نظرات أحمد غير الطبيعية، شعرت بحدسها الأنثوي، أن الارتباط العاطفي بينهما حتما سيحدث، وللغرابة لم تجد غضاضة في هذا؛ فعمته نسخة من أمها، وتقطن معه في مسكنه، وإذا حدث زواج سترى أمها في صورتها طوال الوقت فلمَ لا إذن؟.

صدق حدسها، وقاربت زيزي بينهما، الجميع يشعر بألفة ومودة غير طبيعية. الأب مُبتهج بفرحة ابنته، وبرؤية شبيهة لحب عمره، وزوجته التي رحلت، والتي للغرابة تحمل كثيرًا من صفاتها. فهي بشوشة الوجه، طيبة المعشر، مضيافة، حنون على ابنته، طاهية محترفة...

فرحت زيزي بزواج منى من أحمد، وموافقتها على وجودها الدائم معهما دون امتعاض، أو تأفف من مشاركتها مسكن الزوجية الخاص بهما.

حمدت الله كثيرا على هذا العوض المتمثل في صورة (منى) تلك الفتاة الرائعة، التي هي صورة طبق الأصل من

(أمنيـــة) ابنتهـــا الراحلـــة، وزوجـــة أحمـــد الســـابقة!!.

زجاجة عطر

حينما زار بيت والدها لأول مرة مُحملاً بالهدايا، كان عطره النفاذ يغمر كل شيء. وكم عشقت هذه الرائحة. بعد عقد القران كانت رائحته تجعلها في حالة من النشوة، والمتعة لمجرد مرورها على أنفها، فنسيم رائحته كان دليلًا على قدومه.

لذلك بعد فسخ العقد كانت في حالة من عدم الاتزان. كانت تذهب إلى ملابسها التي كانت ترتديها للقائه لتشم رائحته العالقة فيها، كما كانت تبحث عنه كلما صادفتها الرائحة في الطريق. لكنها في النهاية قررت أخيرًا أن تضع ملابسها التي كانت ترتديها للقائه في الغسالة، لتزول منها كل آثار الرائحة. وفعلا محت آثار رائحته ومحت معها ذكراه.

مرت شهور قليلة ثم تمت خطبتها لشخص آخر، وقد كانت رائحته أول ما لفت انتباهها التي -رغم كونها مميزة جدا- جعلتها تعقد مقارنة سريعة بينها وبين رائحة العطر الأول، ووجدت أن عطر الأول كان أقوى وأدوم، ومع ذلك أجبرت نفسها أن تتأقلم مع هذه الرائحة الجديدة وتعتاد عليها، فهي ستصبح رائحة زوجها الذي ستزف إليه خلال أيام.

بعد الزواج، كانت تريده أن يضع أي نوع من العطور، لكنه لم يكن يهتم. فهي قد أصبحت طوع أمره وملك يديه فلماذا على رائحته أن تكون عطرة؟ ولماذا عليه أن يغسل أسنانه بعد تناول البصل على العشاء مثلا وقبل أن يغفو جوارها؟ فذلك من وجهة نظره يدل على أنها ماتزال بنتا صغيرة مُدللة في بيت أبيها. كادت تجن لمَ يتم التعامل معها بهذه الطريقة و بلا مبالاة بحاجتها النفسية، ولماذا لا يحاول حتى مجاملتها بالكلمة!!

يوما ما وعلى غير المعتاد، قرر أن يشتري زجاجة عطر، وذهبا معًا فسألت البائع: هل يوجد عطر".....؟" أحضره لها البائع، فاستنشقته باشتياق، فذاك عطر خطيبها الأول الذي كانت تذوب فيه عشقًا. فتناولته، وفتحته، ورشت

منه على يد زوجها، الذي تحرك قليلًا فأصاب العطر كُم قميصه، ثم وضعته مرة أخرى على يديه، فشمه وأخبرها بأنه لا يريده.

لم تلح عليه، وفي نفسها تمنت أن يشتريه، لكنه فضل عليه عطره المفضل الذى عرفته به، والذى نسيت رائحته من قلة استخدامه له.

بعد ذهابه للعمل في اليوم التالي، فتحت الدولاب الخاص بزوجها، وبحثت عن القميص الذي كان يرتديه بالأمس، وأخذت الكم واستنشقته باستمتاع، ثم أغلقت الدولاب و قد قررت ألا تغسل القميص أبدًا.

بعد رجوع زوجها من العمل، فاجأها بوضع كفيه على أنفها قائلًا: "رائحة العطر الذي اخترتِه بالأمس ما زالت عالقة في يدي. من الواضح أن نوعه جيد، سأبتاعه في أقرب وقت.." لم تعلق على أنه لم يغسل يديه منذ مساء البارحة، ولكنها فرحت بأنه سيأتي بزجاجة العطر إلى المنزل.

الزوجة الثانية

أهلا بكم جميعا أعزائي المشاهدين، وحلقة جديدة من برنامج "أسرتك في خطر".
حين خروجي من منزلي قابلت زوجة البواب، تحمل حقيبة ملابس بيد، وطفلها الوحيد باليد الأخرى.
فسألتها: هل عزمتي على الرحيل؟ أم نويتي قضاء المصيف وحدك دون زوجك؟ (على سبيل المزاح كعادتي معها).
فأخبرتني بأن عليها الرحيل لأن زوجها سيأتي بزوجه الجديد بعد قليل و"ليس من اللائق أن أكون موجودة معهم
- سأعود لبلدتي- وسيأتي لي إذا ما سنحت له ظروفه".
- لماذا تقبلين بهذا الوضع؟ سألتها
- ليس لي الحق في الرفض! فهو الرجل ولم يأتِ بفعل محرم. فهذا شرع الله، له أن يتزوج مثنى، وثلاث، ورباع إذا أراد.
تركتني بدهشتي، وانصرفتْ سريعًا خشية من قدومه، ألجمني استسلامها، ولكنها ألهمتني فكرة حلقة اليوم.

عزيزتي الزوجة التي طُعنت من زوجها بزواجه من أخرى:
اعلم أنني أطلب منك أن تخمدين النار المتأججة في جوفك، وأن تفتحي قلبك لغريمتك من أجل زوجك.

سيكون موضوعنا اليوم عن الزوجة الثانية.
متى تقبل المرأة أن تكون زوجة ثانية؟.
وإذا أردتِ توجيه رسالة إلى الزوجة الأولى الآن بحكم كونك ضرتها فما فحواها؟
يسعدني استقبال رسائلكم واتصالاتكم ولكن بعد الفاصل.

***

عدنا لكم من جديد ومع أول رسالة من زوجة تحمل اسم "فراشة الربيع" تقول:

أنتي زعلانة مني أنا ليه وبتعلني عداوتك ليا ليه؟

أنا ذنبي إيه؟

أنتي المفروض تزعلي من زوجك اللى مقدرش حبك ليه، وراح دور على واحدة تانية.

هان عليه يجرحك، ويوم ما فكر يعيش يومين ماختارش يكون معاكي .

أنا ماليش ذنب. هو اللي عرف ازاي يقربني منه ويجذبني ليه.

وأنا زي أى واحدة محتاجة أحب واتحب، وهو عمل معايا ده.

بذمتك أنتي أفرط فيه ليه؟

إيه يعني لما أبقى زوجة تانية بدل هعيش معاه فى الحلال!

***

اتصال من زوجة صوتها مليء بانفعال صاخب عرفت نفسها بـ مدام حمدي السيد تقول:

ماذا تعرفين عن الوحدة والحرمان والكبت العاطفي، وقد تزوجتي وأنتِ في عمر الزهور. فتاة صغيرة في أوائل

العشرينات و بعد قصة حب طويلة كُللت بالزواج، حتى تنصبين نفسك عليَّ قاضي وجلاد؟.
لو وصل سنك الأربعين دون أن يطرق بابك رجلا واحدا، لشعرتي بمعاناتي.
أوجه كلامي هذا لا لضرتي فقط، ولكن لكل من يعترض على زواجي من الأقارب والأصدقاء.

شكرا لاتصالك مدام حمدي
مازلنا نستقبل رسائلكم واتصالاتكم ولكن بعد الفاصل فابقوا معنا.

***

عدنا لكم من جديد و
رسالة من "الزهرة البعيدة" تقول:
أعترف أننى تناسيت وجودك ، وكنت أتعامل و كأنك غير موجودة.
فاعذرينى لأني وضعت حياتي فى كفة وحياتك فى كفة.
لا، لم أفعل ذلك، أنا فقط اشتقت للحياة بعد سنوات من الوحدة المميتة، أردت أن أحيا بعد أن كانت حياتي صماء جوفاء. لقد منحني أملا وجعلني أحب حياتي، وتقرب مني في الوقت الذي تمنيت قربه.
لم أفكر يومًا ولم يُخيل لي حتى أن أحب شخصا مُتزوجًا، لكننى لم أستطع أن أشاهد أحلامى تقترب مني ولا أتشبث بها، لم أستطع مقاومة قربه بالصد.
لم أقصد أن يخونك معي أو أن أهدم بيتك. أنا فقط أحببته بشدة. سامحيني.

***

رسالة من "حب وكبرياء" تقول:
إذا كان هو ما احترمش وجودك في حياته،
عايزاني أنا أحترمه !
زي ما ليكي زي ما ليا

أنتي مش أحسن مني ولا أنا أقل منك
معملناش حاجة حرام يا أبلة. ده شرع ربنا. اعترضي بقى!

فاصل إعلاني أعزائي المشاهدين فابقوا معنا.

***

عدنا لكم من جديد ورسالة من
"حياتي مِلكك" تقول:
أعلم أنني في نظرك الشريرة القاسية التي خطفت زوجك، لكنني لو كنت شريرة كما تظنين، لكنت صممت أن يطلقك أو أن يخفي عنك زواجنا.
لم أفكر في الأولى، ولم أسمح لنفسي بالثانية، لأني أراها خيانة أن تظنين أنكِ الزوجة الوحيدة، والحقيقة غير هذا.
أنتِ مستاءة من وجودي معكم في نفس البيت وهذا حقك، ولكني وافقت على هذا الوضع لرغبتي الدفينة بأن نصبح أسرة واحدة، أنا لست عدوتك، أنا أريد أن نصبح أخوات أو أصدقاء، أريد أن يصبح أبنائك هم أبنائي، ليس لأني سأكون في قمة سعادتي وقتها، ولكن لأن زوجنا الغالي يستحق أن يحيا في جو أسري رائق وجميل.
أعلم بالنار المُشتعلة في روحك أثناء نومه في غرفتي، فهي نفس النار التي أشعر بها وهو يغفو في غرفتك، لا تعتقدي بأنك وحدك من تغارين عليه وتهيمين به حبًا.
ولكني غيرك. لأني أحبه أفضل راحته، وإذا كانت راحته معكِ فلن أغضب، ما يهمني ألا يقضي معي وقتا وهو مُجبر عليه.
أيضًا أنا مثلك أشعر بأنه قد يكون مع غيرنا، في الوقت الذي ننتظر عودته بشوق ولهفة، ولكنني عكسك.
هل تعلمين لماذا؟ لأنني لا أنتظر منه شيئا، لا أنتظر منه مثلا كلمات كـ: "بحبك ، وحشتيني" فقط يكفيني أنه أعطاني الحق لكي أعبر عن مشاعري تجاهه، ولا يهمني إحساسه بي.

صدقيني، بالنسبة لى هذا لايهم. أنا أحبه فقط، بدون أى شروط غير أنى أكون فى حياته بالحلال.
عبرى عن غضبك تجاهي، ولا تصمتي.
الأولاد لن يحبونني طالما تُظهرين كراهيتك لي هكذا.
أعطيني فرصة لعل الحب يسود بيننا ونصبح أسرة واحدة.
دعينى أساعدك فى تربيتهم، ومذاكرتهم، وفى أعمال البيت، وفي كل شيء. فهو بيتى أيضا كما هو بيتك، حتى وإن كنت حديثة المجيء إليه.
أريدك أن ترضى بهذا، وتتأكدي من أننى لا أكرهك، وأستوعب مشاعرك تجاهي من الرفض المُطلق ولكن دعينا نحاول.

***

معنا اتصال من "زوجة مخدوعة" تقول:
رسالتي ليست لضرتي لكنها لزوجي:
ليتك خنتني ولم تتزوج عليَّ
ليتك مِت قبل أن أعرف أنك فضلت امرأة أخرى عليَ.

تقاطعها المذيعة قائلة: هل تسمحين لي معرفة وجهة نظرك في أن يخونك ولا يتزوج بأخرى؟

لو خانني فهذا يعني أنه مارس جريمة الزنا، فعقابه هنا سيكون مع الله، هذا بالإضافة لكونها مجرد نزوة عابرة قد يملها سريعا ثم يعود لي.
لكن بزواجه... وتنهي الاتصال وهي تتمتم حسبي الله ونعم الوكيل.

فاصل إعلاني أعزائي المشاهدين فابقوا معنا

***

عدنا لكم من جديد ومعنا
رسالة من البريئة تقول:
ما الذنب الذي فعلته لتشني حربك ضدي؟ لقد أحببته قبل أن أعرف أنه متزوج، وبعد معرفتي كان هو الذي يحاول التقرب مني، فلم أستطع كبح جموح رغبتي في أن أرى من أحبه يتقرب مني ولا أبادله القرب بقرب.

***

آخر رسالة من زوجة لزوجها تقول فيها "امرأة بلا رجل"

تمنيت أن أكون زوجتك الأخيرة.

انتهت حلقة اليوم و مازال الجرح مستمر.
شكرا لكم أعزائي المشاهدين وإلى أن نلتقي لكم مني أطيب الأمنيات بحياة أسرية مستقرة.
أراكم على خير في حلقة جديدة ، إلى اللقاء.

***

أنهت المذيعة التصوير، لترى رجلًا صارم الملامح ينتظرها بشوق، يخبرها مبهورًا بأدائها: "برافو"
اختيارك للموضوع رائع، وأعتقد أن هذا سهل عليكِ المهمة كثيرا الآن.
فردت بانفعال: كنت أظن أنك تمزح معي.
رد عليها بجدية: منذ متى وأنا أمزح في مثل هذه المواضيع!
ردت بذهول: هل تريدني أن أذهب لزوجتك لأتعرف عليها، ثم أخبرها بأنني سأصبح ضرتها، وأريدها أن تبارك الزيجة !
كيف تضعنا في هذا الموقف؟
نعم أريدها أن تعلم، وأريد أن نصبح أصدقاء، ولكن ليس بهذه الطريقة.

أجابها بحيرة: لا أعلم ماذا أفعل لأرضيكِ. هي قطعًا ستكرهك ولا شك.

- معها حق في كراهيتي، ثم أردفت: لكني لن أفرط في حقي فيك لنتزوج أولا ثم نخبرها فيما بعد.

يوم الخطوبة

طقوس قميئة أجبر على معايشتها، لمجرد ألا أكون في نظرهم متمردة، أبدأ يومي بالذهاب للكوافير، والجلوس عنده بالساعات وهو يعبث ببشرتي، تارة بإزالة الشعر الزائد، وتارة أخرى بوضع ماسكات، وطَوْرًا بوضع طبقات مكثفة من الماكياج.

لم أنس "البدي" الضيق تحت فستاني العاري فهذا سيستر جسدي، ولم أنس اللفة الإسبانش فأنا مُحجبة. ها هي زينتي قد اكتملت، وها أنا الآن في انتظار العريس، أرجو أن يأتي سريعًا قبل أن تفسد زينتي من حرارة الطقس. في هذه الأثناء، تطلق الفتيات دعابات سخيفة، وبدأ الحذاء ذو الكعب العالي يثيرني لخلعه.

أخيرًا يصل العريس، هو أيضًا تبدو عليه آثار الزينة، لكنني لا أعتقد بأنه اضطر للانتظار، أوالجلوس طويلا في محل الحلاقة.

نركب السيارة المُزينة بالورود، مع نفير لا يتوقف احتفاءً بالعروسين، وأنا لا أطيق هذه الضوضاء، لكن عليَّ أن أحافظ على ابتسامتي الهادئة، وأن أسيطر على أعصابي من أي فعل مستفز، وأن أتحمل هذا الحذاء اللعين الذي يكاد يفرم أصابعي.

نذهب للاستوديو لالتقاط بعض الصور التذكارية لهذا اليوم العظيم.

يقوم المصور بإجبارنا على وضعيات روتينية مبتذلة، رأيتها مرارًا في صور صديقات لي -لا يوجد تجديد- نفس المشاهد باختلاف الوجوه. لا يجب عليَّ الاعتراض فأنا عروس مُسالمة وهادئة، أمي قالت لي:"العروس كل العيون تكون عليها، لذا تحلي بالتهذيب قدر المستطاع، فكل همساتك محسوبة عليكِ وستنقل للجميع".

نخرج من الاستوديو، لنرى الحشد الذي انتظرنا كثيرًا، حتى انتهينا من التصوير، يلفظون الشهادة في آن واحد فأخيرًا سيفرج عنهم وسيتحركون بسياراتهم.
نصل إلى القاعة، فيقف الجميع لاستقبالنا، أو بالأحرى لرؤيتنا عن قرب، ولتبدأ التعليقات عني...
هناك من سيلفت نظرهم الفستان قبل كل شيء، وسيخبرون بعضهم بعضًا بأن لونه غبي، وأنه ليس جميلًا. وأخريات سيلفت نظرهم وجهي، وسيقلن: "أن الماكياج كثيف، وبأن لون الروج لا يليق ببشرتي"، بعض الحضور سيُعلق على تشابك يدي في يد العريس، وكأنني أخشى هروبه -لا يعلمون بأنني أتكئ عليه- وبعضهم الآخر سيتحدث، وهم في الغالب أقرباء العريس، بأنني لا أليق به، وأنني لم أكن أحلم بمثله -على اعتبار أنه من وجهة نظرهم 'لقطة' وأن ابنة خالته كانت أولى به-.

أما تعليقاتهم عن العريس فلن تتعدي كونه على حد تعبيرهم 'أمور' و 'مُز' ولن يلفت نظر أحد حُلته، أو لون القميص الذي يشبه لون فستاني. لن يقول أحد بأنه طويل كلاعب كرة سلة، ولكنهم سيقولون بأنني قصيرة.
لن يقول أحد بأنه عريض المنكبين كحارس شخصي، ولكنهم سيقولون بأنني نحيفة.
لن يهتم أحد بأن وجهه تعرق ويحتاج لمناديل، لن يهتم أحد بحركة العريس مع أصدقائه.
الكل يرصد حركاتي وإذا مال العريس تجاهي، سيفكرون في كل الاحتمالات، إلا احتمال أنه يسألني عن شخصية معينة.
في البداية تنطلق الطقوس بأسماء الله الحسنى فهذا سيجعل البركة تحل على المكان، ثم يأتي دور رقصة السلو، وتتسلط الأعين علينا رغم خفوت الإضاءة. الكل يترقب العريس علّه يفعلها ويسرق مني قبلة، فتصبح حديث الحضور لأيام عديدة، لكن ذلك لن يحدث فنحن لا نجيد هذه الرقصة من الأساس، وأنا أكاد أخبره بأن حذائي ضيق وأن قدمي تؤلمني، وأننا يجب أن نكف عن هذا.

تنتهي الرقصة، وتعود الإضاءة عادية، ويبدأ الرقص الشعبي. العريس يمسك يدي متظاهرًا أننا نرقص، والحقيقة أننا ندور وهو مُمسك بيدي، حتى أنني هممت أن أخبره "أن يحملني من كفوفي ويدور بي، كما كنت أفعلها وأنا صغيرة مع صديقات الطفولة بدلاً من هذا الهراء."

يحيط به أصدقاءه ويأخذونه بعيدًا عني، أظل وحيدة هنيهة إلى أن تأتي بقربي صديقتي الحميمة، تلحق بها بقية الفتيات اللاتي لا أعلم بعضهن -في الغالب هن أقارب العريس- تتحلق حولي الفتيات، وتمسك إحداهن يدي في محاولة مُزرية للظهور بمظهر من يرقص. بعد عدة أغنيات، يقررون أخيرًا أنه حان وقت أغنية "يادبلة الخطوبة" وكأننا كنا في اختبار، النجاح فيه يعني أن تأتي الصينية الفضية التي تحمل علبة القطيفة التي تحوي الدبلتين والإسورة.

والآن، عليَّ أن أسلم يدي إليه في هدوء ليلبسني الدبلة، ثم نتبادل الأدوار وألبسه دبلته.

تعلو الزغاريد ويتهافت الجميع لتقبيلي، ويصممون أن يُقبل العريس جبهتي. هم لا يعلمون أنني لا أطيق التلامس، فما بالكم بالقبلات من أناس لا يمتون لي بصلة! أما عن العريس الذي استلمني من الكوافير، فأنا لم أقابله سوى من أيام قليلة، وهذا لا يعطيه الحق ليفعل كل ذلك.

أفقت من شرودي على صوت أم العريس، لأكتشف أننا لم نحدد يوم الخطوبة وترتيباتها بعد، وهي تسألني عن رأيي حول تخطيطهم لحفل الخطوبة، الذي لم أسمع منه حرفا.

أجبتها وظل ابتسامة يتعلق على شفتي: " صراحة، لا أريد حفل خطوبة".

استدعاء

إلى الباشا:

"تحيّة طيبة وبعد،

هل تذكُر حين استدعيتني لتأخذ أقوالي منذ عام مضى؟ حين أتيت مُتأخرًا عن الموعد الذي حدّدته معي، وأبديت اعتذارك، وطلبت لنا شايًا لمْ أرتشف منه قطرة واحدة. عفوًا، فأنت تفعل هذا مع الجميع، إذن لا تَشغل عقلك بالبحث، فقضيتي فريدة من نوعها ولذلك ستتذكرها سريعًا. قضيّتي التي اعترَف فيها الجُناة بفعلتهم الحقيرة من سرقة شقتي بعد أن استأمنتهم على المفتاح، زوروا في الحقائق رغم شهادة صاحب العمارة معي، ثمّ فرّوا هاربين خارج البلاد.

ولكي أصدقك القول، لقد أراحني فرارهم، فحكم المحكمة لم ينصفني، ولم يطفئ النار المشتعلة بقلبي، كما أنّ فرارهم سيجعلهم مسجونين في الغربة، و هذا يكفيني. ولكن كما تعلم، إنّ لكل حُكم مُدة محدّدة، إذا لم تتجدّد القضية قبلها سيسقط الحُكم، وكأنه لم يكن. وهذا ما فعله معي المحامون الأفاضل، الذين وكلتهم للدفاع عني. خمسة محامين، باعوني بثمن بخس للخصم دون درايتي، و لم أعلم بذلك حتّى اللحظة التي استدعيتني فيها، لتأخذ أقوالي في سرقة قضيتي من المحكمة!

ولقد علمت بعد مقابلتنا هذه بأقل من شهر - لسبب لا أعلمه- بأن قضيتي أصبحت فى ذمة رئيس نيابة آخر. وإلى هذا اليوم، مازالت الإجراءات، والتحقيقات مستمرة، للبحث عمن سرق قضيتي من المحكمة.

أخبرني، لماذا أحييت الأمل في روحي بعد موته؟ فقد بت أتعايش مع وجع ظُلمي، حتى بدأ يستكين، بعدما ألزمت نفسي بعدم المساس به.

لماذا صوّرتَ لي أنك رجل تهوى الحق وتخشى الباطل، وأن العدل له الكلمة النهائية، وأن المظلوم سيُنصف، وأن الظالم سيندم على فعلته؟

لماذا حين سألتك قبل مغادرتي وعند وقوفي استعدادًا للانصراف: " يعني كده حقي راح؟" كان ردك وقتها -بعد نظرة لم أستطع تسميتها- "لأ ما راحش. حقك هجيبهولك." هذه المقابلة، تركتني أعيش بأمل مسموم، وقد رأيت بنفسك التباطؤ المبالغ فيه في الإجراءات، ثم الحُكم المهين لي.

ما زلت أذكر اتهامك لي باللامبالاة، في متابعة الأحداث.

عاتبتني يومها قائلا: "أين كنتي طوال السنين الماضية؟"

قد كنت أحترق يوميًا، وعلى مدار سنوات فكان اتهامك -ولو على سبيل الدردشة وإظهار مدى تحفزك لنصرتي- ضربة قاضية لي.

أعتقد أنك الآن قد علمت بأن اتهاماتك لي باطلة، وأن الموضوع أكبر مني بمراحل، فالقانون الذي تمثله يُطبق فقط على عُراة الظهر، فأذرع الأخطبوط ليس من السهل قطعها بسكين بالقانون.

و أعتقد أيضًا أنّ الآن قد حان دوري لأستدعيك، وأوجه لك تساؤلاتي. كما فعلتَ معي يومًا، بعد أن تقسم بالله على قول الحق.

س: لماذا تم سحب قضيتي منك؟ هل علموا أنك رجل لا يقبل رشوة، وأن هذا سيصعّب المهمة عليهم كثيرًا، فبدل أن تكون شوكة في حلقهم، أرادوا تنحيتك تماما؟

الكل يشهد بحزمك، ويخشى أن تصبح قضية هو متهم فيها بحوزتك.

لن أنسى الأيام القليلة التي كنت تحقق فيها، لقد أصبت الجميع برعب جعلهم يتصلون بي ليطمئنوا، إن كنت قد اتهمتهم بشيء. أحسست وقتها أنّني أخيرًا قابلت رجلًا يخاف الله في عمله، ويهوى نصر أصحاب الحقوق.

فإن كنت استدعيتني يومًا لأني صاحبة حق، فأنا أستدعيك الآن لأنك صاحب عهد، ولأنّ الجناة قد عادوا لأرض الوطن مُهللين مُكبرين بنزاهة القضاء والقانون.

وأنـا، المجنـيّ عليهـا أتمنـى ألا أقـابلهم يومًـا، حتـى لا أرى نظرات انتصارهم عليَّ، بعد أن لجأت للقانون ولم آخذ حقي بيدي.

تمنيت بعد مرور عام على مقابلتنا، أن تكون أولى رسائلي إليـك شـكرا وتقـديرا، ولـيس لومًـا علـى التقصـير."
إمضاء/ واحدة من الناس.

شـرد قلـيلًا محـاولًا أن يتـذكر هـذه الأحـداث، ثـم مـا لبـث أن أغلق بريده الإليكتروني وذهب لينام.

سراب

يجاهد كي يهرب بعينيه من نظراتها المتلاحقة نحوه. الدهشة تناوشها، تفض سكينتها.

"هل صحيح ما أراه! هل هو حقا؟"

لا يرتدي نظارته الطبية، يبدو نحيلًا وكأنني أشاهده لأول مرة.

حينما تلاقت الأعين، تلاحقت نظرات جامدة غير مستوعبة حقيقة ما تراه لتجسد الواقع بأن ما تراه حقيقة ظهرت الابتسامات المتبادلة التي ظلت تتسع حتى مرت الأعين مجددا منتشية بهذا اللقاء العابر في طريقها، ماضية في دربها لم تتمالك نفسها أكثر من يومين بعد انتظارها أن يتصل، أو يأتي لزيارتها كعادتها به حينما يعود من سفره. فذهبت إليه في عقر داره.

مفاجأته زادته اضطرابًا، فهو لم يتوقع أن يصل جنونها لدرجة أن تذهب إليه وحدها في شقته الخاصة- هي الملتزمة بطبعها وهو زير النساء بطبعه- فالمجتمع لن يرحمها.

فتح الباب مندهشًا مُكتفيًا بالصمت.

نظرت له دون أن تنبس بحرف، تقدمت بخطوتها فتراجع ليفسح لها المكان للدخول.

فدخلت وأغلقت الباب خلفها قائلة: حمدالله على السلامة.

ابتسم قائلًا: الله يسلمك.

وقبل أن يسترسل في أي حديث باغتته قائلة: هذه هي الشقة التي سنتزوج فيها؟

- نعم هي. ما رأيك؟

دارت تتجول في الشقة وكأنها صاحبة مكان . دخلت المطبخ

وفتحت الثلاجة، ثم غرفة النوم ، تفتح الدولاب وكأنها تبحث عن شيء ما.

تحادث نفسها. -كنت أخشى أن يكون تزوج غيري- اقترب منها، فاندفعت في التحدث غاضبة:
أرى أنك كنت موجودًا هنا منذ فترة، و جسدك سليم ولا يوجد شيء ما يمنعك من مراسلتي.

- هل أعطيتني فرصة لكي أشرح لكِ؛ فقط اسمعيني.
- اسمعني أنت الآن، لو كنت تريد أن أسمعك، كنت تحدثت معي يوم أن تقابلنا صدفة. ماذا كنت تنتظر حتى تهاتفني، وتبرر لي رجوعك المزعوم من السفر؟
الآن، أنا من ستتحدث، فوقت كلامك قد انتهى.

يحاول الاقتراب منها فتدفعه بعيدا عنها
-هل تهدئين قليلاً
- كيف هذا بربك بعد أن اكتشفت كذبك؟
- لم أكذب عليكِ يومًا
- أنت دائم الكذب، وأنا دائمة تصديقك، لولا أن حدسي دائماً ما يشي بك، والآن كل شيء بان وانكشف.

-عن ماذا تتحدثين؟

-عن حقيقة كذبك.. كونك مسافر ولن تعود قط إلا بعد أن أرد بالموافقة على زيجتنا، ثم إذ بي اكتشف أنك في آخر الشارع، وليس في آخر الدنيا كما أخبرتني.

لماذا كذبت؟
ماذا تريد مني؟

وإذا كنت صادقًا فلمَ بعد العودة لم تخبرني؟
أظن أنك كنت تراسلني، وأنت تقطن في نفس الشارع الذي أسكن فيه! في الوقت الذي كنت تزعم أنك في آخر بقاع الأرض. هل كنت تمثل فيلماً عربياً وتريد أن أشاركك فيه!

هل كنت تنتظر مني الموافقة على الزواج منك، حتى أجدك في اليوم التالي أمامي فتصبح في نظري حينها، قد نفذت وعدك الواهي، بانتظارك موافقتي حتى تعود من غربتك لأنك تكره أن تخطو قدمك أرض الوطن دون أن تراني، فنسيم الهواء على حد قولك يذكرك بي، فكيف ستتنفس من دوني.

ناهيك عن إحساس زرع الذنب بداخلي، والذي تتعمد ريه في كل رسالة منك لي.
هل كنت تتسلى بي وبمشاعري وبعمري كله لهذا الحد؟ أما كان يكفيك استيائي، وغضبي بعد ما تركتني في لهيب حربي مع أهلي بسببك، وادعيت السفر. كنت أنتظر أن تصلح مافعله هروبك. كنت أتوقع أن سنوات انتظاري لك لن تذهب سدى.
وأنك ستثبت لها ولأهلها أنها أحسنت الاختيار، و لم تضيع أجمل سنوات عمرها في انتظار سراب.

- أنا بحبك

- أنت كذاب. لم يعد هناك شيء لك بداخلي يشفع لك عندي.

يحاول أن يستعطفها بنظراته، وبصوته الواهن الذي يعلم جيداً تأثيره عليها
- كانت أجمل لحظة حينما رأيتك صدفة. وأصعب لحظة حينما منعت نفسي عن محادثتك، وسار كلا منا في طريقه.

-هل حقاً لم تكن تتوقع رؤيتي! رغم أنك تسير في الشارع الذى أسكن فيه منذ أن وعيت على العالم، ماذا إذن عن مفاجأتي أنا بمقابلتك، ورؤيتك وجهًا لوجه بعد غياب السنين وأنت أخبرتني أنك في الصين.

- لننه هذا إذن، ما يهم الآن أننا معًا.

- بكل هذا الكذب لديك لن نكون يومًا معًا، أنا لست لعبة تعلقها بك، ووقت احتياجك لها تجدها في انتظارك.

الحمد لله الذي أظهر لي حقيقتك، في الوقت الذي كنت أكذب فيه جميع من حولي.

شعرت بانهيار قواها الداخلية، ومنعت نفسها من تحطيم الشقة فوق رأسه.

غادرت مهرولة قبل أن تخونها عبراتها

باغتته بالانصراف سريعًا دون أية كلمة أخرى.

لم يستطع اللحاق بها؛ فقد دفعت الباب بعنف خلفها بعد مفاجأته برحيلها.

ضرب بقبضة كفه على الحائط أمامه قائلًا لنفسه: غبي.

امرأة على وشك الاحتضار

تسبّبت في إعيائي حد المرض، وها أنا على مشارف الدخول لغرفة العمليات ليستأصلوا جزءًا من جسدي. تمنّيت لو كان هذا الشيء قلبي لعله لا ينبض باسمك ثانية، أو لتكن ذاكرتي حتى أنساك سريعًا دون جهد. ولكنّني الآن، وقبل أن يفعلوا بي أي شيء مجهول العواقب، أردتك أن تطرب لوجعي، وتنتشي لألمي، وتُزفّ لسعادتك على قبري.

تذكر، أنّك من تسبّبت في لهيب المسافة بيننا، وأنك من بدأت الحديث معي في هذه النقطة. لقد أحببتك أعوامًا عديدة في صمت، دون أن تشعر بشيء. لقد كان يسعدني أن أكون في محيطك وحسب، حتى وإن لم يجمعنا سوى تبادل التهاني في المناسبات، وبعد اعترافي الأهوج لم أطالبك بأي شيء، ولا حتى أن تبادلني نفس المشاعر. فلماذا بعد ما اخترتك أن تكون جوادي الرابح، اخترت أن تكون حوذيًا في ساحة الخذلان؟!

هل خشيت أن تتورط فيّ؟! هل خشيت أن تسمح لي بالاقتراب، فتجدني أقتحمتك، ودلفت غرفك المنسية، تاركة فيها رائحتي، فأزيل آثار ضحاياك، وأجعلك تعلن التوبة؟

هل خشيت ألا تستطيع الاستغناء عني؟

الأدق أنك خشيت إدماني، خشيت أن تصبح نهايتك بأنك بت على الطريق دون الاسترشاد بخريطة توجهك، لأن غرورك سيمنعك من السؤال عن طريق العودة، وساديتي ستمنعني من أن أدلك عليه.

سأحترم خوفك رغم عدم إعلانك الصريح عنه، وسأقدر هروبك الدائم من مواجهتي، ولكنّني لن أغفر لك أبدًا استخفافك بي.

كم أتمنى أن تجيبني على أسئلتي الآن، لكنك كالعادة ستجيبني بالصمت الرهيب، لهذا إذا ما وافتني المنية الليلة، وأنا بين أناملِ الجراحين، تذكر جيدًا أنك مدين لي بإجابة واعتذار، ولِتعلم جيدًا أنني أبدًا لن أسامحك، فقد كان دوائي بين يديك، وبخلت به، حين كُنت أحتضر من شدة الألم.

معك تذوقت طعم الخذلان، تجرعت مرارته على مهل حتى احترق حلقي.
يجب عليّ الآن أن أستعد لتبديل ملابسي سريعًا، فالأطباء في انتظاري. لكن صدقا، لولاك ما كنت لأتمتّع بهذه الشجاعة، ماكنت لأسمح لأحد أن يعبث بجسدي، حتى إن كان ذلك على سبيل العلاج، لكن بعدما لهوت بروحي لم يعد شيء يهمني، فليفعلوا بي ما يشاءون، وليقطعوا من جسدي ما يريدون، وليحضر هذا المشهد من يحضر. صدقًا، ما عدت أكترث.

ما هذا الثوب الخفيف الذي يتوقعون مني ارتداءه - تنهيدة ألم صدرت مني بعد رؤيته- توقعت أن العبث بي سيتم بعد تخديري فلن أشعر بشيء. هذا الثوب وحده كفيل بجعلي أموت وأنا على قيد الحياة.
تأتي الممرضة تساعدني فأرفض ذلك، وأدعوها أن تنتظرني خارجًا، وبأنني سأستدعيها فور انتهائي، تنظر لي بتعجب وصبر نافذ، ثم تنصرف.
"أرأيت ما أعانيه بسببك؟ لماذا لا تكون معي الآن لتساعدني على تبديل ملابسي، فمعك لا أجادل، فقط أسمع ما تريد وأنفذه دون نقاش. كان وجودك سيسهّل المهمة على نفسي كثيرًا.
تمنيت لو كنتَ الطبيب الذي سيعالجني؛ لعلي وقتها كنتُ سأهرع لغرفة العمليات.
لماذا لا أراك بين هذا الحشد الذي ينتظرني؟ سأتقبل أي شيء منك حتى لو كنت صاحب المشرط الأول، لماذا لا تشاركهم وليمتهم؟
أتدري؟ رغم قسوتك معي، إلا أنني أشعر أنّك لو كنت هنا بالفعل، ما كان قلبك ليطاوعك على مشاركتهم في تقطيع جسدي، أو حتى على رؤيتهم يفعلون ذلك، رُبّما وقتها كُنت ستتركني لهم، وتكتفي بصب اللعنة على ما أصابني!!
-تباً لقلبي الذي مازال يأتي لك بالأعذار- !
أعتقد أن الأطباء في أوج استعدادهم لاغتنام الفريسة، وذلك ينعكس على وجه الممرضة، التي تأتي بدورها غاضبة، لكنّها

تحاول رسم ابتسامة عصبية مصطنعة، أرسم ابتسامة مشابهة وأخبرها بأن الطقس بارد. أطلب منها أن تشغل المدفأة في الغرفة، حتى أستطيع ارتداء هذا الثوب. تخبرني بأنه لا يوجد جهاز تدفئة في غرفة العمليات، والأفضل لي أن أظل في هذا الجو، حتى لا يتأثر جسدي.

أضحك متألمة وأسألها: هل سيتأثر أكثر مما هو فيه الآن؟ تشفق على حالي مُتأثرة، تعرض خدماتها مجددًا، فأسلمها نفسي على استحياء.

أشعر الآن بأنني لم أعد في هذا العالم، كأن شيئا لم يعد يعنيني. حُملت على سرير متحرك، فأغمضت عينيّ. لا أريد رؤية الهلع في عيون أفراد أسرتي، ولا الشفقة في عيون فريق التمريض، ولا الحماس في عيون الأطباء.

ما هذه الرائحة؟! يبدو أنني الآن داخل الغرفة بالفعل. يتعجب الطبيب ويسأل: "هي نائمة ولا حد خدرها قبل ما تيجي؟ ! ". لم أبتسم، ولم تثرني مشاكسته حتى أرد عليه، فقد كنت أناديك...

يحاولون عبثًا أن يجعلونني أتحدث معهم، أو أفتح عيني، ليعرفوا إن كان التخدير قد تم بالفعل. لكنني لا أحدثهم، ولا أبدي أية تفاعل معهم.

أراني الآن في مكان فسيح مضيء. أبحث عنك كطفلة تائهة عن أمها، تجري في كل الاتجاهات علها تجدها فتستكين وتهدأ في حضنها. وها أنا أراك في هذه الحديقة الشاسعة، تعزف على هذا البيانو، الذي يتوسط المساحة الخضراء بلونه الأبيض. لم أكن أعلم أنّك تجيد العزف، هذا أيضا لن أغفره لك فأنا لم أعلم عنك أشياء كثيرة، لكنني الآن سأعلم عنك كل شيء لأن روحي ستحيط بك أينما حللت، ستراك دائمًا. وإذا شعرت يومًا بالغيرة من إحداهن، سأثور عليك، كريح عاصفة مُنذرة بالويل تطير بك وبها لأبعد المسافات، وسأجعل لقائكما فقط، من أجل أن يحاول كلّ منكما الحفاظ على جاذبيته فوق الأرض، أراها ستخشى الاقتراب منك بعد كل الأهوال التي سأحدثها في حضورها.

دعنا من هذا الآن، ولنستمتع بعزفك المنفرد...
أتمنى لو كنت تراني الآن، فأنا أتمايل على موسيقاك الجنائزية ناثرة الورود عليك؛ أدور وأدور بخفة كفراشة تحوم حولك.
أقترب منك لعلَّ شذى عطري يثيرك؛ فتنتبه لوجودي وتبحث عن طيفي.
لِمَ أراك حزينًا مندمجًا في العزف لدرجة كبيرة هكذا!.. ترى هل تذكرني الآن؟
سأقوم بأول تجربة لي في هذا العالم، سأداعب أنفك بإصبعي، ثم أضع أذنيك بين سبابتي وإبهامي، كما تعزف على مفاتيح البيانو، أقف وراءك هامسة "ضع وشاحي حول عنقك ليدفئك من برد الأحزان".
-ذاك الوشاح الذي غزلته من أجلك بأناملي بعد أن سكبت عليه عطري الجذاب، وأهديته لك في أول لقاء بيننا، والذي كان للمصادفة بنفس لون ما ترتدي-
أستنشق عبق رائحتك بحنين جارف، تذوب خلاياي بوهن عاصف، تثيرني لأجازف بتجربة شيء داهم.
كأن أضع قبلتي أسفل عنقك، محيطة خصرك بذراعي كأنما أمتطي معك خيلًا جامحًا، لا أجد ما أتشبث به سواك.
أم أنني ما زلت تحت طائلة أن هذا لا يصح؟ حسنًا سـ...
ما هذا هل يحاولون إيقاظي من التخدير الآن!! توقفوا يا سادة، فأنا لا أريد الإفاقة والعودة لارتداء جسدي الفاني، أنا هنا أستطيع الجلوس مع من أحب إلى الأبد، دون أن يتململ من وجودي، أو يتسبب في وجعي، احترموا رغبتي رجاء، ولا داع لهذا الأزيز المزعج على صدري، احترموا حيائي إذا ما فتحت عيني، ووجدت نفسي عارية تحت أيديكم بحجة استخدام جهاز الصدمات.
يا لعنادكم، توقفوا عن هذا. حسنًا حسنًا، لا داع لأكثر من ذلك، فالوضع يزعجني أكثر ممّا يؤلمني.
أريد أن أصرخ: (نعم.. عايزين إيه!!)، أفتح عيني ببطء مُنهك لأطمئنهم، وأتأوه رغمًا عني .

يبتسم في وجهي أحدهم قائلًا: حمدا لله على السلامة.

فستان زفاف

أخرجت حنين فستان زفافها من حقيبة مُلقاة بإهمال أسفل الفراش، لم تلق بالًا للونه الذي أصبح باهتًا، فقد أرادت أن تشعر بكونها عروسًا، ولن يتحقق لها ذلك سوى بارتداء فستان يظهر أنوثتها.

قبل ذلك ألقت نظرة على خزانة ملابسها المليئة بفساتين السهرة، لكنها لم تجد مبتغاها، فهي تريده أن يكون واسعًا مليئًا بالطبقات كزهرة الملفوف الغنية بالأوراق، و أن يكون عاري الصدر لتذكرها مفاتنها بأنها مازالت أنثى. لم تجد سوى هذا الفستان الذي ارتدته منذ سنوات عديدة ككلّ عروس يوم عرسها.

جال بخاطرها بارقة ذكرى ليوم ارتدائها الأول له، لم تكن سعيدة سعادة العروس يوم زفافها، فلم تشعر بفرحة عريسها بها حتى تسعد، فقد أراد أن يتزوجها ليكيد طليقته، لم تعلم شيئًا عن ذلك إلا قبل الزفاف بأيام. عزمت أن تنسيه إياها، وقبلت أن تخوض معركة مع قلبه، بيد أنه لم يمنحها الفرصة، فبعد تحقيق مراده المنشود طلقها سريعًا بلا أسباب، أو مقدمات.

أعاد هذا شريط حياتها كاملًا فهي دومًا تعاني من العلاقات من طرف واحد. فها هو حبها الأول ونكستها الكبرى "أبوها"، حب عُمرها -كما تدعي- لم يبادلها هذا الشعور القوي، بل كان أداة نقد دائمة لا تنتهي. كم تمنت أن يكون لها صلاحية أن تتدفأ بحضنه من غدر الزمان ومكره بها، وأن يشعرها أنها ابنة قلبه المتفردة، لكنه لم يكن سوى أب تقليدي، جل اهتمامه أن يوفر لها حياة كريمة، المال في عرفه وسيلة الأمان الوحيدة.

حين دخلت حنين الجامعة ارتبطت بزميل لها يشبه والدها في كل شيء، ولعل ذلك كان سبب تعلقها به، لكنه لم يبادلها المشاعر، فقد كانت بالنسبة له صديقة مخلصة فقط. كان قلبها يتحطم تدريجيًا نتيجة إهمال من تحبهم، حتى من تزوجها برغبته الحرة لم يكن لها سوى تجربة من طرف واحد.

بعد الطلاق تمنت أن يحتضنها والدها، أن يشعر بكسرها، أن يداوي جرحها بحنانه، أن يعيد لها ثقتها بنفسها، لكنه كالعادة ألقى مسئولية الطلاق عليها وحدها.

كم شعرت بأنها تفتقده رغم أنه يقطن في غرفته المجاورة لغرفتها، وكم اتسعت المسافة بينهما رغم تلاصق الجدران. لم يعلم قط بأنه حبها المفقود الذي هامت في الأرض تبحث عنه بلا جدوى.

كانت على شفا جرف هار من التعثر فيمن يستغل وهنها الداخلي، وهشاشتها النفسية ليبث كلامه المغموس بسموم الحنان الزائف والاهتمام الخادع، لينهش منها ما يستطيع، لكن رحمة الله وحدها تجلت لها وأنقذتها منه، كل هذا قد نهل من قلبها، ونفسها البقية القليلة فانهارت في صمت.

في أحد الأيام قررت أن تلبي نداءً خفيًا بأن "أحبي نفسك فهي تستحق" بعدما كانت قد حكمت على نفسها بالموت البطيء من خلال العزلة، وارتداء زي الراهبات، والتنزه عن الدنيا، وتحويل غرفتها لصومعة عبادة.

أفاقت من شرودها، وبدلت ملابسها، وتزينت، وتعطرت، ووضعت تاجًا على شعرها الشبيه بالليل الحالك المنسدل على سماء ظهرها.

خرجت من غرفتها الضيقة إلى الصالة الواسعة، لتسعد بفستانها، ولترى نفسها أوضح في المرآة الكبيرة التي تتوسط الردهة.

لأول مرة كانت ترى نفسها جميلة، فجسدها ناصع البياض، خصرها نحيل، كعب الصندل الرفيع يضفي عليها طولًا إضافيًا، والتاج يُزين جبهتها كملكة لا ينقصها سوى من يقول لها أنها "أنثى فاتنة."

فهناك فرق مثلًا بين أن تكون على علم بأنها تجيد الطهي، ولكن من يتناولونه لا يبدون رأيهم، وبين أن يقول لها أحدهم "سلمت يداك."

فالثانية تضفي سعادة وثقة في النفس، ورغبة في الطهي مجددا.

أثناء شرودها، دلف والدها من باب الشقة ليجد عروسًا في انتظاره، في الوهلة الأولى لم يستوعب أنها ابنته، لكنه تغلب على دهشته سريعًا إثر رؤية ارتباكها، فهي أيضًا فوجئت بقدومه، لم تدرِ ما هو التصرف الأمثل للقيام به، دون التعرض للوم والانتقاد.

لكن والدها لم يفعل شيئًا سوى اقترابه منها، مُتأملًا ملامحها البريئة، ورعشة شفتيها التي تحاول إخفاءها، ونظرة عينيها المُرتبكة، التي لا تدري إلى أين تنظر. فقد كانت تنظر تجاهه، ثم إلى أسفل، ثم تعيد النظر إليه مجددًا، ثم تشيح بنظرها عنه، وهكذا. إلى أن حسمت الموقف وقالت: "سأذهب لأحضر العشا" وهمت بالانصراف، فناداها فاتحًا ذراعيه لاستقبالها قائلًا: "تعالي في حضن بابا."

حاولت أن تتمالك دموعها إثر المفاجأة، والكلمة التي أصابت قلبها.

فاقترب منها، وأحاطها بذراعيه، ثم ضمها إليه باشتياق جارف، فانفجرت بالبكاء الحاد الصامت أولًا، ثم الشاهق بعد ذلك، ثم سكنت كالطفل النائم الذي ارتوى من لبن أمه.

ظلا على هذا الوضع وكأنهما يعوضان جفاف السنين، لم يعلم بأنه حقق لها جل أمانيها: أن تموت في حضن أبيها مُرتدية فستان الزفاف.

u

- إهداء.....ص5.
- المقدمة.....ص6